كل ده كان ليه؟

كل ده كان ليه؟

قصص

مايكل إبراهيم ذكري

تصميم الغلاف: محمود عبد الناصر

تدقيق لغوي : محمود ربيع

رقم الإيداع: 27990 /2022

I.S.B.N:978- 977-6854-91-8

الطبعة الأولى2023م

للنشر والتوزيع

الإدارة: 17 ش عزت باشا المطرية، القاهرة.

المدير العام: آية سعد الدين

مدير النشر : د. رامي عبد الباقي

المدير التنفيذي : ثائر عزت

هاتف: 01099387500 - 01147633268

E – mail:zeinpublish2017@gmail.com
Facebook: Zein Publish

مايكل إبراهيم ذكري

كل ده كان ليه؟

قصص

زين للنشر والتوزيع

الإهداء الأول

إلى أبي وأختي وأمي، شكرًا على كل شيء، على التحمل والحب والصبر.

الإهداء الثاني

إلى صديقي العزيز د/ نور الدين كمال قطب.

شكرًا لكل الأوقات الرائعة والجميلة

ربما لولاها ما بقيتُ حيًا

أتمنى لكَ حياة مُشرقة سعيدة.

1

الساعة الثانية!

في هذه الساعة بالضبط تتوقف الساعة الزرقاء، ليس كل يوم، ولا كل أسبوعٍ ولا كل عام، لكن عندما تتوقّف تكون دومًا الساعة الثانية.. الثانية ظهرًا.

تظلّ الساعة الزرقاء والساعة الحمراء مقابلها، في ذاك الممر، واقفتان هكذا لفترة، لا أحد يعلم لمَ؟ تثْبُتُ كل العقارب ولا يرتعش شيء.

وقد قيل إنه من سوء الحظ أن تقف بين الساعتين عندها؛ حيث أن كل من يقف بينهما في ذاك الصمت الشديد يحسُّ في نفس اليوم بألمٍ عظيم جدًا، كأن كل اللحظات الجميلة قد ذهبَت لغير عودة، وأنه ليس قادرًا على تذكّر أي منها، يظلّ المنحوس هكذا حتى تمرّ أمامه امرأة جميلة تبتسم له، وتناديه باسمه، حتى يزول الضيق ويشعر بالرغبة في الحياة.

بعد فتره تبدأ الساعة الحمراء بالعمل، تتحرك في نفس الوقت الذي لو كانت الساعة الزرقاء شديدة الدقة تعمَل لوقفَتْ عنده، وهي لا تأتي حركة مفاجئة، بل تتحرك في نفس الوقت الذي توقّفَت عنده بالأمس.

2

- هذه القصة ليس بها امرأة، لن أنشرها.

قال لي الناشر وأغلق الباب خلفه، لم أكُن أدري أين أنا؟ أقصد لم أفهم، هل تُركتُ أم طُرِدتُ؟

ظللت أمشي في الشوارع حاملًا قصصي الغريبة، أفكر في امرأةٍ لأكتب عن امرأة، رأيتُ العديد من النساء بالشارع، لكن بدَوْنا كلّنا.. أنا والباقون وهُنّ لا نصلح للكتابة عنّا.

عدتُ للمنزل وفتحتُ التلفاز، رأيتُ الكثير من المكياج خلفَه نساء فاتنات، لكن هذا الأول يخيفني، ربما عُقدة، نشأَت في المرحلة الابتدائية من المُعلمات الشابات بالمدرسة، أذكرُ أنّني جُرحتُ بالجمال وقتها، حين كنتُ صغيرًا أظن أن كل جمال هو خير، فأجد المُعلمة التي أحببْتُها لجمالها ورقتها، تبتسم بلطف وسلامٍ قبل أن تصْفَعَ مَن لم يُحضِر كراسته.

ذهبتُ نحو السرير، أغلقتُ عينيّ، وتنفّستُ، وقمتُ بتمرين النوم الخاص بي، أتخيّلُ أنّني في بحر، و أنفاسي هي موجاتٌ ترتطم بي بلُطْف.

هذه المرة كنتُ في زورق صغير، ووعَيتُ بنومي ووعَيتُ بزَوْرَقِي، وعيتُ أيضًا أن الدنيا ليل ولا قمرَ بها، لكنّي كنتُ أرى، على زورقي، داخل زورقي، في زورقي، في دمي، رأيتُ العديد من النساء، العديد من الوجوه، ممثّلات

بأفلام أجنبيّة شاهدتُّها أنا وأسرتي منذ زمن، شابات بفيديو كليب لأحد المُغنِّيّين، بسمة هنا، نظرة غاضبة هناك، لطالما بَدَا الجمال الأنثوي رائعًا ورائقًا، ورقصْتُ معهنّ جميعًا فوق سطح المياه، بحُريّة خافتة جدًّا وسعيدة، مؤمنًا لثوانٍ أنّي جميل وأستحق، وبهدوء وسكينة عدتُ للواقع، شاعرًا براحة بسيطة دون ألم.

وذاك آذاني، وددتُ لو تسبّبَ الجمال بوجعٍ صارخٍ داخلي، كي لا أسْعَى نحوه من جديد؛ لأن كُلّ جميلةٍ تحتاج مَن يحارب لأجلها، وأنا لستُ مُحاربًا، وكما يبدو لستُ مؤلِّفًا أيضًا.

3

في هذه اللحظة لا يراني أحد، في هذه اللحظة أنا غير موجود تمامًا، أسيرُ من محطة الأتوبيس لمطعم "الناحل"، أطلبُ ربع دجاجة مشويّة، وشيئًا من البشاميل والحواوشي، آكل بلهوجة يسيره، يسقط شيء من الطعام على ثيابي، لا يراني أحد، يجلس رجل مع ابنه على طاولتي دون استئذان، يأكلان.. يثرثران.. يشربان.. ينهضان، وأَمْضِي لغسل يدي وأخرُج بعد دفع الحساب.

أسير في الشارع تحت أشعة الشمس الحارقة، بلحظة بعينها جوار مستشفى اسيوط العام، التي لا تخلو من المُتعَبِين، يختفي الجميع، أسمعُ نشيجًا خلفي، ربما الشمس ذبحَت أحدًا ما! لكن لا، أعود فأظنه أحد "الفواعلية" ذاهب ليجلس عند النافورة القديمة بال"ميدوب"، لكن لا، هؤلاء لا يبكون، ألتفت، أرى ولدًا صغيرًا مذعورًا.

- أتعرفه؟

● نعم

أرد على عقلي!

● إنه الشيطان، لم أقل الكلمات صباحًا.

يقترب الولد مني باكيًا حزينًا، يمدّ لي قميصه الوردي، أسفل الصديري النبيتي، فوق البنطال الأزرق.

- هذا الدم، إنه على قميصي، إنه ليس دمي، ولا أعلم دَم من؟ سينهرني أبي وأمي ستبكِي.

أتركه، ككل الشياطين لن يُفارِق سوى بالصلاة والصوم، وما زالت بواقي طعام الناحل على ثيابي، أحاول أن أكمل السير لأصل قرب مدرسة المشير، علّي أجد أتوبيسًا ذاهبًا للأربعين؛ فلا أستقل سيارة أجره، لكن الشمس، إنها دائمًا هناك فوق، تحوّلُ عقلي إلى حساء، وعينَيّ إلى حليب.

- لكن الدم ليس دمي، هل سيخرج من القميص، سيتضايق أبي من القميص المتسخ، سيحاول أن يزيله بالبنزين إذا لم تنْفَع المساحيق، هل سيوقد به النارإن لم ينظف، هل سيوقِدُها بي؟!

- لكن أخبرني، ماذا كنت تقول لنفسك صباحًا؟

= أنت جميل، تستحق الحب، وتصلُح للحب.

يقترب مني ذلك الشيطان الصغير، باكيًا مُمزقًا، يدخُلني، يعود الفيلم للعمل، يكتَظّ من حولي الناس، تحميني ظلالهم من الشمس، وأصواتهم من صوته، لكن لا ير اني أحد، ليس لي وجود.

4

خرجتُ من عيادة الطبيب شاعرًا بالألم في نصف وجهي الأيسر، صداع، صداع فظيع يصل حتى لأسناني، ظلَلتُ أتلَفّتُ حولي باحثًا عن صيدلية، وقد بدأَت الثلوج تهبط بهدوء، تتشكّل غيوم بيضاء صغيرة من أنفس المارة، يعبَثُ بها الأطفال، أود لو ألعب معهم لكن الصداع يعيقني.

مضيتُ لأول شخص أراه بالشارع، عجوزٌ ذو عينين صغيرتين.

- معذرة، أين أجد أقرب صيدليّة؟

- هناك، قرب بائع الجبن.

- أين بائع الجبن ذاك؟

- بجوار الصيدلية، ماذا؟ هل أنت أعمى؟

نظرت له باستغراب، وهو يسير تاركًا إياي لأفكاري، سرتُ بسرعة متلفّتًا يمينًا ويسارًا بينما يشتد البرد ولا ألمح من الناس سوى ذيول معاطفهم وهم يدخلون بيوتهم، حتى لمَحتُ لافته تقول صيدلية؛ فهرعتُ إليها وقدمتُ له الوصفة الطبية التي كتبها الطبيب، فأمسك بالورقة، وحدّق بها لثوانٍ، ثم قال بفتور:

- معذرة، ذلك الدواء ليس عندي.

ولم يترك لي فرصة للكلام ومضى لداخل الصيدلية العميقة ككهف، واستقر قرب نقطه حمراء متوهّجة، ربما المدفأة.

- أرجوك، هلّا حاولتَ قراءتها من جديد.

نظر لي بغضب وعاد فأمسك بها، وبدأ يلاحظني تارة والوصفة تارة، ثم قال وقد ارتسم على وجهه تعبير ثقة.

- Moonlight Sonata.

- جيد، كم يبلغ ثمنها؟ أعطني بسرعة.

- لقد كتب لك الطبيب معزوفة تخفّف من آلام الصداع.

- و أين يعزفونها هذه؟

قلت وقد بلغ مني الإرهاق مبلغه.

- سيعزفونها الليلة بالمقر الرئيسي للحفلات، امضِ سريعًا.

طِرتُ إلى هناك، دفعت ثمن التذكرة، وبدأت أنصت لعزف البيانو، بدا اللحن هادئًا جدًّا، خفيفًا جدًا، وتمرّ لحظات أحس أني لا أسمع شيئًا وأن العازف توقف، لكن لا، هي فقط هادئة جدًا، ثم يسوطني الصداع فأعض على شفتي كي لا أصرخ.

ثم لَم أحتمل وهممتُ بالنهوض مصمّمًا على ارتكاب شيء أحمق، كأن أقتل الطبيب أو الصيدلي أو كليهما، لكن الصداع أقعدني، لا بجلدة أخرى من الألم، إنما بإحساس شديد بالإنهاك؛ فارتميت على المقعد، وبعذوبة شديدة قفز قطٌّ رمادي على ركبتي وجلس هناك.

أردتُ قذفه بعيدًا، لكن لم يطاوعني قلبي، وظلَلتُ أمسّد فروه الكثيف بيديّ شاعرًا بيدين أخريتين من كهرباء ونار تمسّدان مخي، ولا أقوى على فعل شيء.

بعد انتهاء العزف لاحظتُ اختفاء القط؛ فسألت الآنسة الجالسة جواري عنه.

- لم تكن هناك قطط، ولقد لاحظتُكَ بعد مرور فترة من العزف تأتي حركات غريبة بيدك؛ فأشحت النظر عنك.

رأيتُها بعد لحظة تنظّف عدسات عويناتها المقرّبة التي تمكنها من رؤية العازف بأكثر دقة، ولا أدري لمَ؟ لكن آذاني الموقف، شيء مني كان سيبقَى معها لو لم تمسح خيالي عن العدسات.

- هذا الصداع يجعلني أغبى.

قلتُ لنفسي، ومضيتُ تاركًا القاعة، وجلستُ تحت أحد أعمدة الإنارة بالشارع، مستسلمًا للألم، منتظرًا أن يقضي الصداع عليّ.

ولم تمر دقيقه حتى سمعت مواءً خفيفًا عند قدمي اليمنى؛ فإذا به نفس القط، حملتُه ووضعته على ساقيّ، ضامًّا إياه لأحميه من البرد.

ثم أحسستُ أسفل ساقي باهتزاز الأرض، وإذا بمركبه تقف أمامي يجرّها ستة خيول مُطهّمة، ويُفتح الباب؛ فأرى نفس المرأة التي جاورتني بالقاعة.

- أوه ستيفان! لقد وجدتك أخيرًا، شكرًا لك يا سيد لاعتنائك بقطي، سَلْني أُعطِيك أي شيء.

فقدمت لها الوصفة الطبيّة دون أن أنهض.

- ما هذا؟
- علاجي هنا، هل تعرفينه؟
- لا أرى سوى خربشات.
- هذا ما كتبه الطبيب ليزيل الصداع عني.
- بإمكاني أن أزيله ببساطة.
- كيف؟
- عبر إزالة رأسك.

و اقتربت مني مُصدِرَة صوتًا كالفحيح، وحدقتاها تحمرّان مع الوقت.

- ما زلتِ جميلة جدًا، لو قتلتِني الآن لن أحزن؛ فسأرتاح من الصداع، ويكون وجهك آخر ما أرى.

وقفت الشابة مذهولة، وأغمضَت عينيها ورفعت رأسها لأعلى وصرخت بقوة، وأخذَت تدقّ على أبواب عربتها بيديها بعنف حتى بدأت تتحطم، واهتاجت الخيول و انحلت السروج، وذهب كلٌّ باتجاه، وهي اختفت.

- شكرًا لك يا صديقي، أرحتني جدًا.

لم أدر مصدر الصوت، لكن شاهدتُ شابًّا وسيمًا يقف أمامي.

- كيف أخدمك؟

مددتُ له الوصفة الطبية بيدين ميتتين.

- أعتقد أنه دواء يحتوي على الإرجوتامين، مادة رائعة للصداع النصفي.

- رائعة أي تنهيه، أم رائعة أي تزيده؟

رمقني بنظرة غريبة، ورأيتُ نفسي بعينيه، ما تركني الصداع أراه، ولم يتركني أتذكر ما رأيت.

- ستشفيك.

- حسنًا لنمضِ لصيدلية، هيا، ستقولُ ما قلتَ للصيدلي.

- لا داعي.

ودَقّ الأرض بعصاه مرتين؛ فرأيت رجلًا أمامي حاملًا صينيّة عليها كوب ماء وحبة دواء، تناولتهم دون تفكير.

وجلستُ على الرصيف، أتابع صداعي يحتضر وأعيش، تلك الأنا ما قبل الصداع.

ثم قلت و أنا أنظر للأرض:

- كانت جميله تلك المرأة.

- نعم.

رد ساخرًا.

- لقد حوّلَتني لقط كي تتمكن من الاحتفاظ بي قربها.

- لِمَ؟ هل تكرهها؟

- لقد أحببتَها أنت، أليس كذلك؟

- نعم، وددتُ لو أبقى معها للأبد.

- هذا ما كانت تريده.

- ماذا؟!

- الأبد، كانت تريد الخلود، أن نبقى معًا دون موت، كسحَرَةٍ خالدين.

- عفوًا، لكن ما الفرق بين الخلود والموت؟

قلت و أنا أنظر له بطريقه ذاهله؛ لأنّني أظن أن كل ما أراه حلمًا.

- حسنًا، في الموتِ لن تحتاج إلى علاج للصداع.

5

ظلَّت تسير على هذه الطريق المقفرة منذ ساعات، بالكاد يضيء القمر، ولا توجد سوى أعمدة إنارة يسيرة على امتداد السور على ذلك الجرف الكبير، منذ البداية وهي مُدركة أنها لن تجد أحدًا على هذا الطريق، ربما بعض التائهين أو قُطّاع الطرق، لا تعلم ماذا أتى بها؟ لكن استمرَّت بالسير البطيء، بعدها رأَت شبحَ رجل يقترب منها، يسير متثاقلًا ناظرًا للأرض كأنه يتتبّع خُلدًا، أصابها منظره بالضيق، وودت لو انتهت ليلتها بشخصٍ آخر.

لكن لم تبالِ وهمّت بالركض نحوه؛ فلو تركته لأجل آخر ستمر ليلة أخرى دون عشاء، وهي لم تتناول شيئًا منذ الأمس.

وبينما يقترب قليلًا قليلًا، هبّت رياح من جهته واشتمّت روحه؛ فأصابتها القشعريرة، بدا أنه حتى تلك اللحظة، أثناء نقله لتلك الساق أمامه، أن شيئًا ما يفترسه من الداخل، يأكله ويأكل نفسه، لقد سمعَت من قبل أنّ أرواح البشر خالدة بعكسهم؛ لذا لا ذنب عليهم عند قتل أحدهم، لكن أحسَّت أن هذا الحزن داخله يتجدّد ويتوالد، تتكاثر كل لحظة الأسنان التي تقضم، وقطعة النفس التي تفنى، أحسَّت بما يشبه الشوكة داخلها، وتمنّت لو كانت حساسيتها لروائح البشر أقلّ من ذلك، أرادت الهرب، أرادت ترك هذا الطريق السخيف وذاك الشخص السخيف وراءها، لكن أوقفَت نفسها، ولم تدَع هلَعَها يسيطر عليها مادّةً

ذراعها أمام فمها، عاضّةً إياها إلى أن سال الدم، الدم الذي نبّهها بحاجتها للمزيد منه، والألم نبّهها أنها حيّة وتحتاج، عليها أن تلبّي هذا الاحتياج.

مضت بخطوات ثابتة نحوه، متمايلة متضاحكة كعاهرة ظريفة تريد القليل من الفكّة، مقابل الكثير من المتعة، لكن عند اقترابها بدأت تسمع نبضات قلبه، متوتّرة مُتعالية مضطربة، لم تدرِ هل السبب كائن في ذاك الشخص أم في حواسها القويّة؟ لكن انتابتها دوخة حتى كادت تفقد توازنها، وبلحظةٍ من الوهن والترنّح أحسَّت أنها تبصر ذلك القلب خلف حُجب اللحم والعظام والقماش، سفينة تضطرب يمنة ويسرة فوق بحرٍ هادر، سفينة لا قبطان بها ولا دفّة، تتمايل وتغوصُ في الماء وترتفع من جديد.

أعادتها ذبابةٌ إلى الواقع، طنّت قرب أذنها وكادت تخترق عينيها؛ فقتلتها بسرعة شاعرة بالقرف والضيق، ذكّرتها تلك اللئيمة بالموت، كم هو بسيط سهل، يحل كل المشاكل! تذكّرَت أول رجل قتلته، نائمًا على سريره أثناء مشاهدة الأخبار، ثم كسرٌ في العنق، وكوكتيل دمّ مُثلّج لذيذ بعد ذلك.

راقبَتْه من جديد عن بُعد متسائلة ماذا يريد حقًا من سَيرِه في هذا الطريق؟ قدّرت أنه في العشرينات، بدين، يرتدي كنزة حمراء قصيرة الكُمّين، وبنطال جينز أزرق.

فكّرت بالاقتراب منه بسرعة، ومدّ يدها داخل فمه و اقتلاعِ لسانه، لتتركه يرقص متغنيًا بأصواتٍ دون كلمات، وهو يتشحّط في دمه المتناثر حوله، وهي تتبعه قاطفةً حبات الفراولة الصغيرة الدافئة، إلى أن يدوخ تمامًا فتقضي عليه مُسمِّرة إياه على جدار، غارزةً في أحشائه صنبورُ برميل، لتشرب بهدوء.

وفعلَت كما أرادَت، لكن حين أصبحَت أمامه أمسكت بيده اليسرى ولاحظت نظراته إليها، نظرات خالية من الخوف والفزع لبؤبؤَيْن يتسعان لترى نفسها فيهما، رأت أنها جميلة وفاتنة، لم يخبرْها أحدٌ من رفاقها الدمويِّين بذلك، ولا مرايا لتنظر إليها، وأحَسَّت بنبضه المتسارع من يسراه، وشاهدَت دمعتين صغيرتين تتركان عينيه بسعادة، كأنما طال حبسهما، ويدًا مرتعشة تلمس خدها وهو يبتسم لها ابتسامة مدفونٍ حيٍّ كسروا عليه قبره، ويهمس:

- وجدتُّكِ!

ثم هوى بين ذراعيها.

6

لم يكن ممكنًا القتال في وقتٍ كهذا، مسألة هاملت ضمن مسائل أخرى عليه مناقشتها معها، لكن ليس الآن، ظلّ جالسًا مُبعثرًا على مكتب مُرتّب، كل شيء في مكانه سوى أفكاره؛ فهي هنا بالجريدة، وهناك بألسينور، وأحيانًا عند الحدود التي تفصل بين شقته وشقتها.

- عليك أن تراجعهم جميعًا.

وقذفت بكومة أوراق على مكتبه.

ربما لثانيه قصيرة، لحظة من الزمان، شبيهة بتلك اللحظة التي أظهر فيها الشيطان للمسيح جميع ممالك العالم، لمح ازدراء طفيفًا على شفتيها، رعشةُ رمشٍ تُظهر تحكّمها الشديد كي لا يراه، كي لا يلحظه، أحسّ بقلبه يخفق بعد مغادرتها وهو يتخيل أنها كانت تنظر لزميله الجالس على المكتب المقابل، وذاك الآخر لا يلحظه بل يلحظها، ربما لذلك غمز وقتها، تلوّت أحشاؤه وسط صوره، إنها ربما تبتسم له بنصف الشفاة التي لا تزدريه، بالعين التي لم تبصره.

ظل ساكنًا وقد شَحُب لونه بعد ذهابها، حتى أتى الساعي وسأله:

- ماذا بك يا أستاذ؟ هل رأيتَ عفريتًا؟

ابتسم مُرتعشًا ذاهلًا، حاول أن يَقسِم شفتيه على اثنين كما فعلَت لكن فشل، وشاهد حماقته في عين الساعي؛ فسار الطريق لآخره مُجيبًا:

- إن السماء والأرض تُخبّآن من الأسرار ما يتجاوز أكثر أفكارِكَ جموحًا.

7

- هل قرأت السيناريو؟

- نعم نعم.

- نعم واحدة تكفي.

- أنت تعلم.

وتبادل هو والمنتج نظرة هادئة، في الظاهر على الأقل، كان الأخير رجلًا قوي البنية يومًا ما، لكن أتلفَتْهُ المِهنة روحًا وجسدًا، قلبًا ونفسًا؛ لذلك يرتاب في كل مَن حوله، خاصةً ذلك المُمثّل؛ فهو هادئ معظم الوقت، لا يو افق على الكثير من الأدوار، لكن الدور الذي يقوم به ينجح بشكلٍ مُبهر.

- لكن هناك شيء لا أفهمه يا سيدي المُنتِج.

- ما هو؟

- السيناريو غريب، يتحدث عن الشباب والأحلام، فيه الكثير من المشاهد الفانتازيّة الغريبة، وهو رومانسي جدًّا في قسمٍ منه.

- ما المشكلة في ذلك؟

- حضرتك لا تنتج هذا النوع من الأفلام، أفلامك معظمها إثارة وغموض وجريمة.

حدّق فيه المنتج بهدوء، هو يظن ذلك، لكن بدا أنّ نظراته تُكهرب الجو، وأخرج سيجارة من دُرجِ مكتبِه وأشعلها، بما بدا أنه استسلام، وأخذ نفَسًا وأطلقه ثم رماها.

- ستفهم لاحقًا.

لم يفهم الممثل، وأراد الخروج مع ترك ذكرى لطيفة عند المُنتج؛ فأمسَكَ بالسيجارة المُلقاة على الأرض، رقيقه كشعرة معاوية، ورماها بسلة القمامة.

- حمولة نفسٍ واحد، لن تحملكَ لأي مكان، وداعًا.

لم يفهم شيئًا، لكن سُرّ أنه ذاهب.

بعد خروجه من المكتب وضع على أنفه نظّارته الشمسية، وهَمَّ بركوب سيارته، لكن أحسّ أنه يومٌ جميلٌ لا يجب أن يمضيه في صندوق مُغلق؛ فظل يتمشّى في الحي الفاره الذي يسكنه المنتج، لقد نشأ في حيٍّ رقيق كهذا، لا صخب ولا جرائم ولا عنف؛ لذلك يرفض كل أدوار الشاب الخارج من العشوائيات كما تقدّمها السينما؛ لأنه حتى لو أتقَنَ الدور بالتدريب فسيظل يسمع داخله صوتًا يقول: أنت تكذب.. تكذب، لا تمثل بل تكذب.

ظل يتجوّل مشيًا من مكان لمكان يراقب السُحب في سيرها الهادئ الخفيف، يجلس في حديقة ليسمع الأغاني على هاتفه، يقذف له بعض الشباب الصغار- الذين يتعرّفون عليه كممثل، لكن لا يزعجونه لكونهم مُعتادين على المُمثلين– كرة فيلعب معهم، ويرن هاتفه فجأة وإذا به المُنتج.

- مرحبًا سيدي، كيف حالك؟

- الإجابة التي طلبتها، ستجد من يخبرك بها في كافيه بوتيتشيللي، بنفس الحي الذي قابلتني فيه، الواحدة ظُهرًا، وداعًا.

وأغلق الخط، ولم يفهم الممثّلُ شيئًا.

لكن عرف موقع ذلك الكافيه بعد أن سأل اثنين من المارة، ومضى إلى هناك، أتت نادلة شابّة ومعها بسمة خفيفة مُقدّمةً له لائحة الأطعمة والمشروبات، ومضت، وقد تركتها بسمتها كقطٍ خفيف مُتسلّلة إلى قلبه، جالسة بين الحُجرات، مُسببة ضيقًا لذيذًا لفرحٍ لا يمكن إزاحته والشعور بشيءٍ غيره.

ذكّرته تلك الفاتنة بفاتنة أخرى حاولَت أمه تزويجه بها، ذات درجة علمية رفيعة، كُل شيء بالنسبة لها قابل للقياس، كذاك الأستاذ برو اية أوقاتٍ عصيبة، وقد كان وقتًا عصيبًا فعلًا؛ حيث تضايقت حين ذكر لها عيوبه بكل بساطة، وتضايقت أكثر حين علمَت أنه لم يفعل شيئًا تجاهها.

- وما هي مز اياك؟

قالت بفتوروهي تعبث بالقشّة في كوب عصيرها، وتُجيل نظرتها في كل اتجاه.

- أستطيع تأمل الجمال النسائي دون شهوة.

- ماذا؟! ماذا تقصد؟

فكّر أن يُحدثها عن نظرياته وطريقته في رؤية العديد من الأشياء، لكن أحس أنها صفقة خاسرة؛ فظل يتهرّب من أسئلتها حتى ضجرَت، وحين أرادت دفع ثمن مشروبها لم يمانع، وعاد فصعق أمه بما حدث، لكن تلك النادلة فعلًا جميلة.

- جميلة.

قال بصوتٍ عالٍ دون أن يُحس.

- مَن هي الجميلة يا أستاذ؟

صدمه الصوت؛ فوجد كَهلًا جالسًا إلى جواره، يبدو عليه الثراء، لكن نسبةً من أسنانه مفقودة، وبوجهه العديد من الندوب، شعرُه غزير أبيض كالقطن، لكن بدا له روحا حزينة.

- هل أنتَ من أتى بي إلى هنا؟
- بالطبع، كيف حالك؟ هل تناولْتَ الغداء؟
- لا، شُكرًا، لستُ جائعًا.
- من قال أني سأدعوك؟ هذا محض سؤال.

و ابتسم الكهل بشفتيه وهو غالقٌ فمه ابتسامة ساخرة، أحَسّ المُمثل أنها أعادته سنينًا طويلة إلى الوراء، حين كان يُشاكسه رفاق والده الأثرياء بالأسئلة ذات الوجهين والتلميحات الماسخة، نعم هذه الكلمة الأخيرة هي بالضبط ما مثّلته تلك البسمة.

وفي دقيقه طلب الكهل وجبة غداء كبيرة، أتت بسرعة حيث قام على خدمته العديد من النُّدّل، وعندما تهيأ كل شيء على طاولته قال للمُمثّل:

- هذه حمولة شخصٍ واحد، بالكاد تسعني أنا.
- لن تحملني لأي مكان، أليس كذلك؟
- آه، يبدو أنك حرّكتَ قلب مُنتجي العزيز، انتظرني فقط.

وخلال عشر دقائق استمرَّت دهرًا قضى الكهل على كل شيء أمامه بنهم غريب، أحس المُمثل أنه يأكل دون أن يكون جائعًا، فقط ليأكل.

- ربما.

قال لنفسه.

- أحضري الشاي يا جميلة.
- حاضر سيدي.
- هل اسمها جميلة؟

سأل المُمثل بعد ذهاب الشابّة.

- نعم.. اسم على مُسمّى، أليس كذلك؟ انها ابنتي، فحذار.

- لا، لا، لم أقل أو أفعل شيئًا تِجاهها بصدق.

- أعلم، لقد راقبتُكَ منذ أن دخلت، هي ليست ابنتي الحقيقية، بل أعتبرُها كابنتي، هل أنت متزوج؟

- لا، ليس بعد.

- نعم، رائعة كلمة "ليس بعد" هذه، رائعة جدًا.

- لا أفهم، لمَ؟

- إنها تعطي إحساسًا.. إحساسًا جميلًا، لكن دعني أولًا أجيبُك على سؤالك.

- أي سؤال؟ آه نعم، لقد أردتُ أن أفهم كلمة "حمولة شخص واحد" التي قلتَها عن الوجبة، وقالها المُنتج عن السيجارة.

- آه، هذه أيضًا، حسنًا.

أخذ العجوز رشفة من كوب الشاي الخاص به، وودَّ الممثل لو فعل مثله، لكنه نسي أن يطلب كوب شاي! ويشعر أنه لا يليق أن يطلبه الآن.

- لقد كنتُ أنا ومُنتجك العزيز رفاقًا لفترة طويلة، وعملنا معًا كثيرًا بمختلف الوظائف والمِهن وعشنا حياة قاسية؛ فلم يولد هو مُنتج ولم أولد أنا رجل أعمال، وكلمة "حمولة شخص واحد" كان يستخدمها أيٌّ منا حينما يشير لشيء لا يريد مشاركته، فإن حاول أحد الاقتراب منه هوى عليه بلكمة أو صفعة قائلًا: قلت لك "حمولة شخص واحد".

بدت الدهشة على وجه المُمثل، بينما يرتشف الكهل من شايه.

- لذلك قمتُ بكتابة ذلك السيناريو الذي قرأته، ولم أكتبه وحدي، بل هو ساعدني فيه، بل كتبَ مُعظمه.

= فعلًا، لا يبدو أن سيناريست مُحترف هو من كتبه، لا يوجد ترابط بين العديد من المشاهد، وهناك الكثير من الاحتفالات وأمور الود الطفولية، يبدو أقرب لفيلم كرتوني.

- إنها حياتي كما أردتُ لها أن تكون، مليئة بالحب والمُغامرة والحلم، مليئة بأناسٍ طيبين ومُصادفات مُذهلة، أريد أن أضَعَ هذا الفيلم بعد تصويره في عقلي، كذكرياتي الحقيقية، أريد أن أنسى ما حدث.

- هذا يعطي عُمقًا رهيبًا للأمر وإحساس جميل.

- آه، إحساس جميل مثل كلمة "ليس بعد" تلك التي قلتها منذ قليل، إنه ذلك الإحساس أن بإمكانك الزواج لو أردت، بإمكانك أن تحب لو أردت، لديك تلك الرفاهية.. أن تحب وتحبك فتاة رائعة مثل جميلة، نعمه لم تُعطَ لكثيرين، أتعلم؟

- ماذا؟

- ربما لو طلبتُ من جميلة الزواج بي ستوافق، وإن لم توافق هي ستوافق أخرى، لكن ما الجدوى؟ ما عادت لديّ القدرة على استطابة شيء، ربما لأجل هذا لم أُصلِح أسناني، وأحاول الفرحة بالكَمّ لا الكيف.

قال الرجل متأثرًا كأنه يعترف بذنوبه، لكن المُمثل سرحَ منذ زمن ناظِرًا لجميلة بطريقة حالمة، ثم رفع صوته برقّة طالبًا الشاي، وسرعان ما ذهبَت نحوه مبتسمة.

- تفضل، آمل أن يعجبك، أعددتُه بنفسي.

- شكرًا.

والتفَتَ نحو الكهل أثناء ذهابها، وقد لاحظ الأخير تلك الحركة اللطيفة، وعندما تلاقَت أبصارهما لم يقدِر المُمثل على الصمت.

- جمالها من النوع الهادئ، كأنك تنظر لسطح النيل وقت الغروب، حيّة وخفيفة، ذلك الجمال الخالي من المساحيق والألوان، يهبُك سلامًا.

وعاد المُمثل لتأمّل مُحيّا جميلة على البُعد، بينما يراقبه ويراقبها الكهل بهدوء، شاعرًا بالدماء في أجسادهما تتدفق حُرةً شابّة كأمواج البحار الخفيفة القوية، بينما هي آثار على صخور بيضاء وسوداء داخل جسمه، كالضرس الذي مدّ نحوه أصبعه ليزيل أثر لحم لم يقْوَ على مضغه.

8

- الخوف، الرغبة، الخوف، الرغبة، الخوف، الرغبة.

رأيتُه قادمًا على الطريق، يدفع قدمَيه دفعًا أمامه، يطوح رأسَه يمنةً ويسرة كأنها لسان جرس عملاق، ويرنّ بكلماته المتخلّفة تلك ماضيًا ببطءٍ شديد، أردتُ الذهاب لكن عليّ أن أظلّ في مكاني حيث اتّفقتُ مع مندوب توصيل المطعم على التقابل.

- الخوف، الرغبة، الخوف، الرغبة، الخوف، الرغبة.

لم أدرِ كيف؟ لكنه يتحدث بصوتٍ خفيض ومع ذلك أسمعه، يطنُّ في أذني كذبابة قبيحة، ذلك النوع الذي لا يذهب، إما أن تقتله أو يقتلك.

- الخوف، الرغبة، الخوف...

- يا عم، أنت يا عم.

صحتُ به بعد أن تجاوزني قليلًا؛ فالتفت.

- الخوف.

ردّ راميًا رأسه ناحية اليسار.

- لِمَ تتكلم هكذا؟ صوتك هذا يوتّرني جدًا، ماذا؟ هل تشحذ؟

لم يرد، و اقترب إليّ مُحدّقًا بي، بدا كأنه يبذل مجهودًا خارقًا لتثبيت عيونه عليّ، لو اهتز للحظة، أو هبّت عليه ريحٌ يسيرة فستسقط عيناه على الأرض.

- هل تحدثنا من قبل؟ هل تعرفني؟
- لا، إطلاقًا، ولا أريد أن..
- إذًا كيف تجزم أن الذي سمعتَه مني، هو صوتي؟

اندهشتُ منه وتركته لحال سبيله، ولمحتُ عندما مرّ وسط شجرتين أربع عيون حمر تتبعه، اثنان على كل جهة وكان مندوب التوصيل يسألني عن نقوده، و أنا أشاهد دخان دراجته النارية، يصبح لثوانٍ أيادٍ تقذف برأس الشاب؛ فيَئِنّ.

9

- هل تأمرينني بشيء؟

- لا، شكرًا، مع السلامة.

و افترّ ثغرها عن ابتسامة صغيرة، من داخلها أرادت فعلًا أن تبتسم بشدة وتضحك، وتقفز من مكانها وتطير لعالم آخر، لكن لم يُتَح لها سوى تلك البسمة، في ذلك الصباح السخيف حين تبدأ عملها.

مرّت الأشياء بهدوء، والناس بهدوء، تأخّرَت اليوم عن المجيء؛ فلم تلمح قوس قزح الذي يصنعه الضوء المارّ عبر الباب الزجاجي، كانت تحب أن تلمسه، وتهمس:

- يا ليتني حين أنكسر أكون هكذا.

و أتى العديد من العملاء، الجميع أخذ شيئًا، من الصيدلية وروحِها.

- إنها غريبة أيتها المُديرة.

- مَن؟

- الدكتورة المتواجدة هنا صباحًا.

- لم؟! ما الغريب بها؟

- كأنها دومًا تريد أن تسأل عن شيء، شيء منسيٌّ تتوقف حياته عليها ولا تعرفه.

مع غروب الشمس تنتهي فترة عملها، أعادت الباب الزجاجي لنفس الزاوية، علّ المعجزة تحدث، وأثناء انتظارها دخل عميلٌ متعكّر المزاج مادًّا لها روشتّته.

يقف الرجل أمامها، تراه ولا تراه، تتواثَب في ذهنها الأسئلة والاحتمالات، تُلقِي بصرَها على الروشتّة، الأدوية مطلسمة تحتاج لجهد في قراءتها، هل بقيَت بها طاقة؟ هل تضع الروشتّة على جروب الواتس للصيدلية؟ لم تحقّق مبلغًا كافيًا اليوم، ماذا لو هناك صنفٌ ناقص؟ كيف تقنعه بالانتظار حتى تجلبه؟ هل سيعذرونها لنقص البيع؟

كادت تسقط من فرط التفكير، لكن تمالكت نفسها ومضَت لقراءة الروشتّة بتدقيق، عرفَت أول صنفين؛ فذهبت لتحضرهما، تذكّرَت الأول فقط، وعادت تقرأ الثاني، ولمحَتْه هناك، كعصفور كاريبي ممتلئ الألوان، بدا قوس قزح لامعًا على الروشتّة البلاستيكية المنثنية للأعلى؛ فيسألها العميل الذي يحسب بسمتها له.

- خير يا دكتورة؟

- لا، لا شيء، لمحتُ دواءً أعرفه.

إهداء إلى (م. أ)

10

- هل تبكين؟ ذلك حسن! البُكاء ينقي القلب.

قال والدها هذه الكلمة بعد أن ولج غرفتها أثناء نوبة بكائها العنيف، حدّقت به للحظةٍ مصدومة من ظهوره؛ فارتبك وأغلق الباب الذي لم يطْرُقه قبل فتحه وخرج، ولم تمضِ لحظات حتى عادت للبكاء من جديد.

أحس بالضيق والعجز وهو يسمعها، لا يدري لِمَ تفعل ذلك، لمَ تبكي؟ وجّه السؤال لنفسه، للمقاعد.. للطاولة.. لصورة والدتها المُتوفّاة المعلّقة على الحائط، ولم يأته جواب، لا يحسب أنه قال شيئًا أو فعل شيئًا يؤذيها؛ فقد تناولا الغداء منذ ساعة، وجبة بسيطة لكن مليئة بالضحك والود، حتى أتتها رسالة على هاتفها ومضت لغرفتها.

ارتعشَت يده التي أرادت إنقاذه من غمِّه الشديد، ولم تدرِ ما تفعل؛ فمضَت لجيبه وأخرجَت علبة دواء الضغط الجديدة، مُخرجة كل الأقراص من الشريط، وتضعها في فمه، وتتبعها بالماء؛ لتنقذه.

ثم بعد دقائق خرجت ابنته من الغرفة، وقد أزالت من على وجهها آثار الدموع، فبدا متورِّدا، بل قد اصطبغ ببعض مساحيق التجميل.

- آسفة لو أزعجتك، أرادَت إحدى صديقاتي إرسال مقطع بكاء لها لحبيبها، ضمنَ خِطّة بعيدة المدى لإجباره على الزواج، لكن لم يكن لديها مزاج للبكاء اليوم؛ فأخبرتني أن أبكي لها، حماقة! أليس كذلك؟

وضحكت بخفة، وأخذت تقرأ رسائل صديقتها بعدما بعثت لحبيبها بالتسجيل، لكن أحسَّت بثقَلِ الصمت؛ فرفعت عينيها عن الهاتف وحدّقت بوالدها، وتبادل الجميع نظرات خوف وحزن وغضب واتّهام، بما فيهم اليد اليُمنى، والشريط الفارغ على الطاولة بعيونه الشفّافة.

11

ظلّ يتقلّب نائمًا، تلاحق عليه الصور والرؤى، لا يكتمل له منها شيء، قطعة من كل شيء، الجدران فقط واضحة، الجدار المَطلي بلاكيه مختلط بزيت، جدار قديم وطلاء قديم، تلتصق اليد المُبتلة به وتتركه مُحدثه صوتًا، جدار آخر في مدرسته القديمة، خشن الملمس بارز كأن له ثآليل، لم يصطَدِم به أبدًا، جدار آخر ناعم بارد الملمس، يُريح جبهته عليه حين لا يراه أحد.

- إنه يبكي بالخلف، صديقك، يبكي بالخلف.

هناك بالمدرسة الابتدائية، همسَت له طفلة صغيرة، وهو أيضًا صغير، أين ذلك الخلف؟ لا يدري، لكنه سار تحت أشعة الشمس الحارقة، أحسَّ ببعض الرمل في حذائه وجوربه من فرط اللعب، أحس بتلك الذرات، لا بل هي أكبر من ذلك، تضايقُه.. تحُكه، أراد الجلوس و انتزاع الحذاء والجورب ورَمْي كل تلك القذارة.

لكن الشمس والمشوار، أين ذلك الخلف؟ حاول أن يقاوم، لكن لم يستطع، الضغط من أعلى ومن أسفل، جلس وخلع الحذاء والجورب، ورمَى بالأتربة كلها بعيدًا، ودلّك قدميه بلطف وعاد للمسير.

سال العرق على جبينه لكن لم يضايقه ذلك، الحَرّ لا يزعجه كثيرًا ما دام بمفرده، والسير أصبح أسهل مع راحة قدميه، لمحه لثوانٍ ثم لم يره.

- بنيامين... بنيامين.

نادى بصوتٍ عالٍ أول مرة، ثم بصوت أخفض في المرة التالية، لم يكن صديقه المُقرّب، بل لم يكن صديقه حتى، ربما نهض لأنه لم يكن هناك شيء آخر يفعله، أو بسبب كلمة تلك البنت، هل كان مقلبًا؟ سأل نفسه وكفّ عن النداء، فما الذي سيُبكي بنيامين الآن؟

لم يُرِد أن يجده، لكن تضايق حين لم يره، أراد العودة، هناك ثِقَلٌ على صدره، ذنب، ليس صدر الطفل، بل صدر الرجل.

- لكن بنيامين مات.

سمع معلمته في الصف الثالث الابتدائي تخبره وهما يسيران معًا خروجًا من مدرسة السلام.

- صعقَتْه الكهرباء فمات.

يتذكّر تلك المعلمة أيضًا، طويلة وشعرها هشّ خفيف مُكوّر بشكلٍ غريب.

تدور الذكرى كالدودة داخل عقله، تسبح في جسده، وتعودُ لتستقر في قلبه، فتح عينيه بين اليقظة والنوم؛ فطالعَهُ وجه بنيامين ذاك، أبيض سمين قليلًا.. شعره بنيٌّ ناعم أو أسود خفيف، لو امتدّ به العمر لأصبح مُجعّدا مثلنا جميعًا تحت تلك الشمس.

كان يجلس على المقعد بالخلف، طفلٌ ليس ذكيًّا كثيرًا، لم يتكلّما كثيرًا، لكن لم يفصله عنه جدار.

- ربما!

يقول لنفسه، وهو يستيقظ.

- بنيامين هو الذي علّمني كيف أبني الجدران وأهدمها؛ لأنّني جاهدتُ ألا أنساه.

12

في الصباح الباكر، وقفَت هناك تُطالع الطريق.

- شيء قادم.

همست لنفسها وأرادَت الذوبان، لا يمكن لها أن تتفادَى ذلك الشيء، لا تقدر أن تهرب منه أو تختبئ، عليها مواجهته.

- لو أصبحتُ مثل هذا الطريق، الطريق الذي لا تؤذيه السيارات.

فكّرَت لو أصبحَت طريقًا، تجتازها كل الأشياء ولا تحتفظ بشيءٍ منها، الطرق جميلة وبسيطة، ربما لو أصبحَت طريقًا هنا فستتواصل مع الطرق هناك.

- أتمنى أن أُصبِح طريقًا.

صرخت نحو السماء، وبينما تشعر في نفسها بالتحوّل، تساءلت، لمَ لم أتمنى أن أكون سماء؟

13

أثناء بكائه فكّر بعدة أشياء، لِمَ صاح والده به هكذا حين كسر لعبته بالخطأ

- إن كانت اللعبه لي حقًا لِمَ تضايق حين كسرتها؟ هل هي لعبته هو؟

بدت الأشياء غريبه بالنسبة له خلف ستار الدموع، المصابيح لها أشكال مختلفة، فكل دائرة مضيئة حولها العديد من تراكيب الأشعة كوردةٍ متألقة مُلوّنة، والقمر بدا في الشرفة، حيث جلس وحيدًا، لامعًا أكثر من المعتاد، مثل مركبة فضائيّة غريبة له هيكل كبير ضخم، والنجوم أوضَح، وأصوات الصراصير بالشارع أدَقّ وأعلى، ووسط ذلك كله توقّفَت دموعه عن الجريان.

فمضى ليكسر لعبه أخرى.

14

1

بعدما فشلَت جهودها في الانضمام للنادي أخذَت "ليزا" دراجتها الهوائية لتتجوّل بها بين الحقول، أحسّت بروائح الزهور هادئة وخفيفة هذا المساء، النجوم، الهدوء، أصوات الصراصير، وهي تفعل ذلك الشيء الغريب الذي لا تعلمه، ما هو ذلك الصوت المُحببّ؟

- هيه هيه هيه.

أوقفت ليزا دراجتها من فرط الضحك حينما حاولَت أن تقلد الصراصير وتصدر صوتها، حسب ظنها، حماقاتها تلك هي التي منعتها من الانضمام لنادي هؤلاء السيدات الأرستقراطيات.. نادي الشاي خاصتهن.

- أو نادي أي مشروب آخر.

قالت ليزا مُحدّثه نفسها وهي تتذكر الخادمة وهي تقرئها رد الماركيزة، وعادت فضحكت بشدة بسبب ملامح الخادمة المُتكبّرة وهي تقرأ، ثم اختلاجها وارتباكها حين ضحكت بشدة، وسكبَت لنفسها البراندي في كوب زجاجي كبير وشربته مرة واحدة.

- كم ستتضايق أمي حين تعلم بذلك.

وعادت فابتسمت بلطف، لكن بدأت بسمتها في التلاشي وهي تتذكر كلمات والدتها الدُّوقة، إن الضحك الكثير سيملأ وجهها بالتجاعيد، لم

تتلاشَ بسمتها خوفًا من التجاعيد، إنما حزنًا على والدتها الشابّة ذات القلب المُغضّن العجوز.

بعد لحظات هبّت نسمات صيفية قويّة جعلت خصلات شعرها الأشقر تتطاير في الهواء، وخلفها سمعَت صوت وقع اقدام؛ فحرّكت أذنيها أولًا، ثم التفَتَت، وبمجرد أن تلاقت أنظاره معها ضحكت بشدة، ثم قالت:

- آسفة، لقد قمتُ بهذه الحركة التي تعلمتها من قطتنا، أقصد تحريك الأذنين، كيف حالك؟

كان الشاب السائر نحوها شديد الاضطراب، يمسك بقبعته يُجعّدها ويثنيها ثم يحاول فردها من جديد، اقترب منها وقد بدا في مثلِ سنها، لكن هناك مِسحة جهلٍ وحزن على وجهه، وميّزت ليزا، وهي تميل رأسها للأسفل بزاويه مُعيّنه وتبتسم، أنه لم يكلّم فتاةً طوال حياته.

- سيدتي، سيدتي، هل لي بكلمة؟

- مرحبًا، كيف حالك؟

ومدّت يدها نحوه مصافحَة يده بضغطٍ خفيف، شَحُب وجه الفتى كأنه صُعق، وهي توقّعَت ذلك، لكن لم تقصد مضايقته، أرادت فقط العبث معه.

- ماذا بك، أدعى ليزا، و أنت؟

- برنابا.

- اسم غريب، قديم.

- كل عائلتي أسماؤها غريبه يا سيدتي، أسماء لم يعد يريدها أحد، مثلنا، أنصتي لي رجاءً.

كان يتكلم وهو يلهث، لا يعلم لمَ؟ فهو لم يركض حتى، بل أتى مشيًا، وبعدما طالبها بالإنصات مدّت عنقها نحوه، وحدّقَت فيه بعينيها اللتين لمح فيها التماع كريستال ذائب؛ فخفق قلبه بقوة أكبر.

- النادي، أعلم لم رفضوكِ.

- حقًا؟! لمَ؟

- لم تستوفِي جميع الشروط يا سيدتي.

اتسعت عيناها اندهاشًا، وأجابت بلُطف:

- هناك شروط؟

- بالأحرى شرط واحد فقط، غير مُعلَن.

- لا بل أكثر، واستوفيتها جميعًا، مثل حفظ أبيات لفيرجيل، وعزف مقاطع لموتزارت و..

- رجاءً.

صاح بصوت حيوان يُذبَح.

- دعيني أقول الكلمات التي تُبقِيني و اقفًا مُحتجزة روحي داخلي، أهم شرط هو انتحار رجل دفعه حبك لذلك.

- ماذا؟

ارتجّ الأمر على ليزا ولم تفهم.

- كما أقول لكِ، إذا أردتِ الانضمام فبإمكاني أن أكتب رسالة حب، و أتركها جوار جثتي بعدما أشنق نفسي، فقط عِدِيني أن تُقدمي ألف فر انك لعائلتي، أختي مريضة و..

- أنتَ مجنون، مجنون وأحمق!

- سيدتي انتظري.

لكنها ركبت دراجتها وفرّت لبيتها.

2

بعد ذلك بفترة قصيرة علمَت أن النادي استقبل وافدَةً جديدة، أخبرتها الدُّوقة بذلك.

- لو كنتِ انضممتِ لذلك النادي لكُنتِ استطعتِ الزواج من أمير نمساوي على الأقل.

- هل مات أحد في القرية، أقصد بطريقة غريبة شاذة؟

- نعم، قتَلَ شاب يُدعَى برنابا أو برسابا لا أعلم نفسَه، أغسطس، هل أمرتَ الخدم بتحضير السلطة للغداء بطريقة ألكسندر دومًا الابن أم لا؟

ظلَّت ليزا طوال ذلك النهار تتجول في القصر لا تعلم ما تفعل، تدور بخُلدها آلاف الأفكار، وعند حلول المساء وانهماك والدتها مع أصدقائها عزمت على شيء.

- أغسطس.

- أمركِ سيدتي.

- خُذنِي لمنزل ذلك الشاب المُنتَحِر.

- أوه! سيدتي، لن تُسَرّ الدّوقة بذلك، ولا يجب أن تفعلي ذلك أو تجبريني على فعله، المكان هناك خطر وأولئك الفلاحون...

- إذا لم تذهب بي سأذهب بنفسي.

- أمركِ سيدتي.

بدا المنزل هادئًا وجافًا، الباب كامد اللون مُشقّق كأنما لم تلمسه يدٌ حنونة من قبل، الأبواب تحسُّ بالحنان المنقول إليها، حين يطرق أبٌ فَرِح بالعودة باب منزله، حين يراه المُتعب التائه على بُعد فيشعر بالراحة. بدا ذلك الباب حزينًا؛ لأنه لم يفرح به أحد!

طرقته ليزا بهدوء؛ ففتحه رجلٌ مُسنّ تبدو عليه الفظاظة، كان سيقول شيئًا سخيفًا لولا أن لمح أغسطس بسيماه القويّة وثيابه الخدميّة الغالية.

- تفضلي، سيدتي، كيف أخدمكِ؟

- هل أخت برنابا هنا؟ هل هي بخير؟

- آه نعم نجحت العملية، هيا تفضلي، هي قالت أنه قد تزورها شابّة نبيلة.

مضت ليزا للداخل وأحسَّت بالعتمة الغالبة على المكان حيث لا يوجد سوى شمعدانين تكاد تنطفئ شموعهما، واحد في ركنٍ قصي والآخر بغرفة منعزلة، سمعت صوت الباب يغلق؛ فارتاعت.

- أنا هنا سيدتي، لا تقلقي، هل هناك أحد في المنزل غيركِ أنتِ والفتاة؟

- لا سيدي، لا أحد.

مضت ليزا للغرفة حيث الشمعدان الآخر، دون أن تسأل العجوز، وبالرغم من الشمعدان كانت مظلمة جدًّا، وهمّت ليزا بإشعال شمعة في حقيبتها بعود ثقاب.

- لا تشعلي أي شموعٍ رجاءً، لن تحتمل عيناي الآن الضوء.

- حاضر.

- لقد نبّهني أنه قد تأتين، حكى لي أن عينيكِ تضيئان في الظلام، ها نحن بالظلام الآن، ولا أراكِ!

- رجاءً، أنا..

- ما حدث كان لا بُدّ أن يحدث، لكنه أراد بشدة أن تكوني أنتِ، لأجلكِ أنتِ، رجاءً لا ترُدّي عليّ ولا تقولي شيئًا، مُدِّي يديكِ للأسفل قليلًا وحركيها

برفق؛ ستجدين طاولة صغيرة عليها رسالة منه لكِ، خذيها و اقرئيها بعيدًا.

أحست ليزا بالجرحِ في كرامتها، لكن لم تحتَجّ، وأخذت الرسالة ومضت كما قيل لها، مسّ أذنيها صوتُ نشيجٍ غطَّى عليه وجيب قلبها.

أثناء خروجها وإغلاق الباب أرسل صريرًا حزينًا، أحسّت أنه سيظل يتألم هكذا للأبد، يصافح الداخلين والخارجين، ولا يجلس معه أحد، لا يحدّثه أحد، أحسَّت أنه حزين أكثر منها، وعندما مدّت أصابعها لتتحسّسه وجدَت شقًّا عميقًا فيه، شقًّا يتسع لظرف به رسالة من العالم الآخر؛ فتركتها فيه.

- سيدتي، لِمَ فعلتِ ذلك برسالتك؟

سألها أغسطس؛ فحدقت فيه ذاهلة، وعادت فحدّقت بيدها، ثم بالباب، وأخيرًا بأغسطس، الذي لم يفهم لحظتها هل هي تبتسم أم تبكي.

15

ظلّ و اقفًا في الهايبر لمدة تزيد عن الثمان ساعات ينقل الأشياء ويبيع ويحاسب.. يسجل الخصومات بالنسب والأرقام، وجلس أخيرًا بعدما هدأ ضغط العملاء؛ ليتناول قطعة بسكويت وزجاجة فانتا بلاستيكية وضعها فى الفريزر منذ فترة طويلة، وبعدما ابتلع بسرعة البسكويت وهمَّ بفتح الزجاجة دخل شاب الهايبر.

بدت ثيابه بسيطة، بل أقرب إلى الاهتراء، ولمح على ذراعة المكشوفة آثار حقن، ونطق الشاب بلهجة متعبة كسيرة:

- أريد طعامًا.

وقدم له ورقة فئة الخمسة جنيه.

وأخذ هو يحدثه بتلك اللهجة التي يحتفظ بها لأصحاب الشركات والأثرياء وزوجاتهم، أولئك المشتريات بمبالغ وقدرها، وحين أحسّ الشاب بغرضه من السخرية منه قال بلهجة أكثر حزنًا كي يرقّ له:

- ليس معي سوى هذه الخمسة جنيهات، رجاءً أي طعام، لكن مُحلّى بشدة أرجوك.

وأحسّ البائع أنه نال غايته وزيادة قليلًا، هذه الزيادة سبّبَت له ضيقًا للحظة، لو كان أكثر إنسانية لعرف أن هذا الضيق مصدره تأنيب

الضمير، لكن مضى والتقط قطعة شوكولاتة بخمسة جنيهات ووضعها في الكيس، وقدمها للشاب.

- تفضل.

- شكرًا جزيلًا.

وقطع الشاب الغلاف وتناولها بسرعة، بينما ألقى البائع الورقة النقدية في الدرج بقرف وعاد لفتح زجاجة الفانتا، حين بدأت ذبابة بمضايقته؛ فأخذ يبعدها بيده وهي ما تنفك تعود، ومرقَت لعينيه أسفل عويناته؛ فانتزعها وأخذ يدلّك عينيه، وقفز من مكانه وحاول بيديه وقدميه تقريبًا أن يقتلها، وسمع أثناء معركته صوت الباب يفتح.

- ماذا؟! ما الذي تفعله؟

التفت فوجد زميله الذي يأتي ليستلم منه.

- أحاول قتل هذه الذبابة الحقيرة.. البشعة.. القذرة.

- اهدأ.. إنها ذبابة وتتصرف كذبابة، هل لو أصبحْتَ ذبابة كُنتَ فعلت شيئًا آخر؟

- لا أعلم، فقط اصرفني لبيتي.

مخافة أن تسخن الفانتا أعادها للفريزر من جديد، وأسرع نحو زميله وراجعًا الحسابات، واطمئنًا أن كل شيء صحيح، وأسرع ليبصم، والتقط الفانتا من الفريزر وخرج.

عندما خرج رأى الجوّ ما زال ليلًا، أحَسّ بالتشويش.. لا يعلم متى بالضبط كان يجب أن ينتهي الشيفت؟ لكن لا يهم، وسار لمدة ساعة محاولًا إيجاد سيارة أجرة أو أية حافلة، لكن لم يجد شيئًا، والجو يزداد برودة.

أحسّ أنه لا يقدر أن يخطو خطوة واحدة أخرى، وتذكّر أنه لم يأكل شيئًا طوال اليوم، معه نقود لكن لا يوجد أي محل بقالة مفتوح، ليس معه سوى كيس يضم زجاجة الفانتا البلاستيكية.

أخرجها، وحاول فتحها فلم يستطع، كانت مغلقة بشدة بسب وضعها بالثلاجة طول هذا الوقت، وهو يشعر بالكثير من الوهن، ظل يسير كالسكران من مكان لمكان، صادف أحد المارة؛ فاقترب منة قائلًا:

- لو سمحت هلّا ساعدتني.

لكن الرجل ارتاب فيه وسار بسرعة تاركًا إياه، شعر أن كل لحظة تمر تزيده وهنًا وضيقًا، لمح مجموعة شباب جالسين يصطلُون نارًا.

- يا شباب لو سمحتم.. أريد خدمة.

- ماذا؟ هل ضللتَ الطريق لبيت المسنين؟

* طردتك زوجتك، أليس كذلك؟!

- لا لا، أريد فقط من أي واحد منكم أن..

* لنذهب يا جماعة، تأخر الوقت.

انفَضُّوا عنه، بينما ظل هو و اقفًا قرب مجموعة من الورق والخشب المحترق، فكر أن يرمي زجاجته فيها لربما تذيب النار الغطاء.

ولمح عن بُعدٍ شابًّا جالسًا على الرصيف يحدق في الفراغ؛ فاقترب إليه، وبعيون غائمة قرّبَ له زجاجة الفانتا، وأشار بيده ليفتحها؛ ففتحها الرجل، وأخذها البائع وشربها كلها، وأحس بالنشاط يدبّ فيه من جديد.

- شكرًا، كدتُ أموت.

- لا تهتم.

ونهض الشاب دون أن يتبين من هو، لكن أتَت ذبابة و اقتربت من إحدى فتحات أنفه؛ فأصابه قرف شديد، وحكّ تلك المنطقة وهمس:

- ذبابة لعينة قذرة.

ثم عاد وسكت، وسأل نفسه:

- هل لو أصبحتُ ذبابة كنتُ فعلتُ شيئًا آخر؟

16

بدأ كل شيء في الاحتراق بهدوء، ليس في منزلي فقط، بل بالعالم كله، لم تسع النار لهدم الأشياء، ولم تنفجر أنابيب الغاز، أو يُشوَى أحد ويصرخ.

بدت النار مخلوقًا رقيقًا، لعوبًا بعض الشيء، تريد أن تتمّ عملها دون أن تؤذي أحدًا، وقد فكرتُ بيني وبين نفسي، حين لم يكترث أحد بتلك النار، بل تركوها كما هي، إنها لا تسعى لشيء سوى الالتهام.. التهام الألوان فقط.

أحسَستُ بذلك جليًّا، وحاولتُ أن أتذكر أنواع الدموع الثلاث؛ فهناك دموع تخرج عندما يطرف شيء ما العين، ودموع تخرج تأثّرًا بحالة عاطفية، أما النوع الثالث فلم أتذكره! ربما يكون هو.. ما يطفئ تلك النار؟

سرتُ بمحاذاة النيل، وجلستُ على دِكّة أتطلّع للسماء، بدَت السحابة على شكل وشاح لونة برتقالي هادئ مع قماشته البيضاء، بدا رقيقًا جذّابًا.

وددتُ لو أجلس و أنظر أكثر، لكن كان ينبغي لي أن أذهب لدفع اشتراك الانترنت لأجل عائلتي.

فخرجت من السايبروسرتُ باحثًا في السماء عن الوشاح الرقيق؛ فلم أجده، ارتدَت السماء بنطال جينز أزرق قديم متعَرّق، به بعض الثقوب تبرزُ منها النجوم كأطراف دبابيس.

وعدتُ للبيت وساق السماء المحشورة في البنطال فوق كتفي، لم أرَ النار، وحدثني الجميع عنها بعدما عاد لهم النت، عن ظهورها بمختلف مناطق العالم.

فدخلت غرفتي وأمسكتُ هاتفي؛ فخرجَت قطعة نار ودخلت قلبي، شعرتُ بالدفء أولًا ثم زال لوني.

17

السيكلوب!

كان ذلك عنوان البحث الذي قدّمَه في فصله بالصف الثاني الابتدائي، أخبرتْهم المعلمة أن يكتبوا عن أي شخصية خرافيّة تروق لهم، اختار العديد من زملائه هرقل وزيوس و أبوللّو، والعديد من الأسماء الأخرى، لكنه فضّلَ أن يكتب عن السيكلوب، لم يكن يعلم أنه سيقابله بعد أسبوع.

يتذكر ذلك اليوم، أواخر الصيف وأوائل الشتاء، كانت ما تزال في ذهنه أفكار البحث الذي ناقشه، السيكلوب عمال مهرة، الكلمة نفسها تعني دائري العين وهم من جنس الجبابرة.

أنزلته السيارة ليلًا على طرف الشارع؛ فاضطر أن يسير بمفرده نحو المقصد، تتراصّ على الجانبين العديد من الأشجار، والريح لا تحمل له أية روائح، شعر بانقباض في قلبه، خفقان وقصف، لا يشعر بالارتياح لهذا المشوار.

دخل المكان فوجده أبيض تمامًا، كل شيء لونه أبيض، كأنه مطليّ مسحوق عظام، لم يكن هناك سواه؛ فمضى نحو الباب ودخله، شاعرًا أنه مثل هؤلاء الأبطال الذين قرأَت له المعلمة عنهم، لا يقدِرُ على الفرار من قدره.

وبعدما دخل رآه، تتوسط العين الواحدة جبهته، دائريّة ولامعة، حدّق فيه مرتعدًا، ومن فرط الخوف لم يحسّ بيد الموت تدفعه للداخل، نحو السيكلوب وأدواته المرصوصة أمامه، استسلم ليدَي ذلك العملاق، وأحس طول الوقت بالعين الدائريّة اللامعة تراقبه، لم يقدر على الإغماض، أراد أن يراه بدقه، لو انتهى الآن فلن يترك لحظة من الرعب تفوته، وسيحفظ شكلَ هذا العملاق ليبحث عنه في هادس ويثأر لنفسه.

لاحقًا عندما تناول الغداء مع أسرته، وأخذ يحكي لأمه ما حدث، اندهشَ والده وضحك قائلًا:

- لم أتخيل أن موعدَك مع طبيب الأسنان سيؤثر بك هكذا.

18

- حسنًا، سأحقق لك هذه الأمنية، ألا تريد الأمنيتين الأخريتين؟

- لا لا، شكرًا لك.

وأطلق الجني قهقهة عالية وتبخّر في الهواء، لم أفهم شيئًا، لكن تلك كانت الأمنية الوحيدة على كل حال، مضَيتُ لأعدّ فنجان قهوة، وبعدما وضعت الكنكة على النار همستُ لها:

- عندما يحين الوقت نادي عليّ، اتفقنا؟

ومضيتُ لأقرأ كتابًا وسرحت، ثم نبّهَنِي صوتٌ نسائي قوي:

- الآن، الآن، أسرع هيا.

فمضيتُ بسرعة حتى أن الكتاب سقط مني على الأرض؛ فوجدتُ القهوة توشك أن تفور؛ فأطفأتُ النار وسكبتُها في كوب مُندهشًا من اختفاء كل الفناجين.

- أنت أفضل من الفناجين، أليس كذلك؟

- بالطبع.

رد صوتٌ ذكوريٌّ خشن.

- هذه التي تشدُها من آذانها كأطفال الابتدائية، لا تُقارَن بي.

والتقطتُ الكتاب من على الأرض مُعتذرًا له؛ فأومأ متقبلًا اعتذاري، وبدأتُ بشرب القهوة، ألذّ قهوة شربتها في حياتي.

19

جالسة أستمع للأغاني، كل واحد به شيء يجذب ويلفت الانتباه، أرفض فكرة الولاء التام لأحد وعشق كل أغانيه، هناك رجلٌ على البُعد يراقبني وأنا أُنصِت في ركني البعيد الهادئ للأغاني على جهازي الرقمي الصغير، يدخّن سيجارة، يبدو أنه يفعل ذلك.

ما عادت بي طاقة!

أود إخباره بذلك، أني لم ألحَظ منه شيئًا سوى أنه يدخن، لم أعُد شابّة وأعرف ذلك، وأعرف ما تعنيه تلك النظرات، لا يهم، يدندن عبد الوهاب:

كل ده كان ليه؟

لمّا شُوفت عينيه

، ،

حنّ قلبي إليه

وانشغَلْت عليه

كل ده كان ليه؟ ليه؟

يهتز قلبي لأول مقطع، لا أكترث لتلك التي يتحدّث عنها الشناوي، بل الفكرة نفسها، أتمنى لو لم تكن الأغنية سوى هذا المقطع، لكن تُوضَع الجوهرة وسط الكثير من المعادن لتتألق.

أعيد الأغنية من البداية، تتردد تلك الموسيقى الحالمة الحزينة، تبدأ الآلات في الكلام، لا يمكن تبيُّن ما تقول، لكني أمسكُ بها وأصيح في وجهها:

- أفهمك، أفهمك.

كانت تقترب إليّ أمي هكذا منذ زمنٍ قديم، حين أكون جائعه تُقدّم لي الشراب، في عطشي تُطعِمُني، أشكو لها ضيق حذائي فتشتري لي فستانًا جديدًا، عندما أبكي تقترب مني وتعانقني، تملأ كل حيّز داخلي وخارجي، لا تترك مكانًا للحزن.

- أنا أفهمك، أفهمك.

يتردد حِسّها في تلك الآلات، تفهَمُني بطريقة غريبة، طريقتها، فستاني القديم المحبوب اهترأ، لكن الحذاء الجديد سيَلِين مع الوقت، أذرفُ بعض الدمعات والحذاء إيّاه يحدّق بي، أحسّ بقلبي الآن على أطراف أصابعي، قد أقدمه لكن من يُسلّم عليّ، لكني لا أريده تحت حذاء.

أميل على الطاولة الخشبيّة، أجعلها تعانقني بالقوة، أغرز أصابعي في جسدي كي لا يفر اللعين مني، أتألم و أنزف.

أين هم؟! كل الذين أضحكتهم، كل الذين أضحكوني وسِرْنا معًا بلادًا كاملة، كل الذين سهرتُ معهم نتكلم حتى الصباح، كل الدمعات والهمسات، كل الرفاق والأصدقاء، كل ده كان ليه؟

20

السؤال الأساسي: هل ذلك الشخص مُستعدٌ للموت من أجلي؟

بعدما قال تلك الجملة، ظل يثرثر لمدة نصف ساعة عن الكثير من الأشياء عن هذا العالم، والعالم الذي يليه، والذي يليه، هذا الكوكب والكواكب المجاورة.

بمجرد ذهابه نهض الدكتور فرانز وأعَدّ لنفسه كوب شاي، يظن أحيانًا أنه اختار مِهنة الطب النفسي لكونه لا يُحبّ الناس؛ لذلك يجعلهم يدفعون نقودًا فقط للالتقاء به والتحدث معه، أو لأنه...

- آه تبًا.

قال آخر كلمة داعكًا جبينه بيده، لا يريد التفكير بشيءٍ الآن، يأخذ رشفة أخرى من الشاي، يحسّ أثناء مروره بجوفه بشيء يحكّه على رقبته، يجده قطرات يسيرة من العرق.

- هل المُكيّف يعمل؟

يسأل لكن لا يجيب أحد، فكّر أن تكون جدران بيته مصدرةٌ للصدى، لكن تراجع عن الفكرة، الأصوات داخله تكفيه وزيادة.

لا يكترث، يترك الشاي ويمضي ليستحِمّ، بعد الحمام وتجفيفه لنفسه جيّدًا يمضي للنوم، لا يحلم بشيء، لكن يعي أنه نائم، يستيقظ في الصباح ليجد البنطال والقميص الذي يرتديه ابتلّا تمامًا.

- ماذا؟! ألم أكبر على هذا؟

لا يأخذ الأمر بجديّة ويضحك قليلًا، حاصرًا تفكيره بالموقف ككوميديا، آلية درّب نفسَه عليها كي لا يتعب، لكن حين مضى للحمام وجد ثيابه الداخليّة جافة ونظيفة كما ارتداها بالأمس، وتلك المياه ليس بها رائحة البول.

ينتزعها ويرتدي أخرى جديدة، يذهب للعمل ويشرب قهوة أثناء قيادته، يجلس بمكتبه، يمر عليه صديق طبيب يزور المشفى بالصدفة؛ فقرر أن يُلقِي السلام عليه، فنهض وصافحه.

- ماذا؟ هل يدك مُبتلة؟

يقول له صديقه؛ فيمد يده أمام عينيه، ويلاحظ آثار القهوة التي شربها ولم يسكُب شيئًا منها على يده.

- آه يظهر ذلك، أعتذر بشدة.

بعد ذهاب صديقه يجلس بمفرده، أي يجلس في أعماقه مع أعماقه، يحاول أخذ الموقف بطريقة كوميديّة لكن لا يستطيع، هل زالَت الحواجز؟ هل انفتح الداخل على الخارج؟ وأصبح كل ما فيه يرشُح!

هل سيقول للناس كم يحبهم وكم يكرههم، أو بالأحرى يكرهُ هذا الحب، قبل أن ينسكب الكلام من ذاته؟

- السؤال الأساسي: هل ذلك الشخص مستعدٌّ للموت من أجلي؟
- لا.

يجيب على المريض الجالس بعقلِه.

- إذًا ما الجدوى من الإخبار؟

21

- هل عاد صابر؟

سألني والدي بعدما عدتُ من الخارج جالبًا كيسَي مكرونة.

- نعم، قد رأيته.
- هل يصِيحُ ويجلبُ كما كان يفعل؟
- لا، هو فقط هادئ وساكن في مكانه.

كان صابر هو المجذوب الخاص بمنطقتنا، مَن جذبه؟ لست أدري ولا يدري أحد، قال لي والدي أنه كان رجلًا أشيب مُحترمًا، يجلس بالمقهَى مرتديًا بزّته ويقرأ الجرنان، أنيق كلحنِ موسيقَى لفريد مضبوط كعُودِه.

لكن يومًا ما بدأ بفقدان عقله، واستفْحَل الأمر حين قبض راتبه وهَمّ بتوزيعه على الناس؛ فتيقّن أبناؤه من جنونه، وأصبح لا يرتدي سوى الجلاليب المُمزّقة، يسُب المارة ويضايق الناس، ثم اختفَى وما عاد يراه أحد، والآن عاد.

جالسًا على كرسي أمام بوابة المشرحة الخاصة بمستشفى الإيمان، مقابل بقالة صلاح، حيث أذهبُ لشراء طلبات البيت.

رأيته ساهمًا سارحًا، هادئًا يراقب الأشياء، أوقات كثيرة يضايقه الأطفال المشاغبون مُستفزّين إياه كما اعتادوا أن يفعلوا، والكبار أيضًا يعاكسونه؛ فلا يفعل سوى التمتمة بكلمات لا تُسمع، ثم يصمت.

- غالبًا يحاورُهُم في عقله أولًا، وحين يتوقع ردودهم يقولها نيابةً عنهم، ثم يصمت.

- نعم، أظن الأمر هكذا.

ذات يوم كنت مارًا من هناك، في طريقي المُعتاد بجوار السّور نحو محل البقالة؛ فر آني.

- إنه يعتِبُ عليك.

- ماذا؟! من؟! من يعتب عليّ؟

سألت صابر مُندهشًا.

- السور، يعتبُ عليك، كنت تربُتُ عليه كل يوم، ثم توقّفت؛ فهو يعتب عليك.

تخشّبتُ في مكاني ناظرًا له مشدُوهًا.

- أنا، أنا لا أفهم.

- ولا عُمرَك هتفهم.

قال صابر ونظر بعيدًا واضعًا ساقٍ على ساق، ويده على خده، حدقتُ فيه ثم مضيت لعم صلاح لأشتري، و أثناء نزولي انزلَقتُ على بلاط الأرضية، وقُذفت بعيدًا دون أن أدري كيف؟ ولولا أن استندتُ على السور لسقطتُ على الأرض.

- رأيت؟! يعتب عليك ثم يسندك، جدارٌ.. جدارٌ حقيقي.

وعاد فنظر للسماء وعلى وجهه تعبير غريب؛ فعدتُ لبيتي وربتُّ على السور في طريقي كما اعتدتُ منذ سنين.

22

1

- نعم كما أقول لكِ، لم أصدق في البداية لكنها أكّدَت لي، لقد تزوّجَت أختُها هذا الأحمق.

- لا، لا يمكن، هي فتاة عاقلة، وذلك الرجل مرّيخيٌّ غريب الأطوار.

- لكن صدقيني، لقد...

هنا أحسَّت الشابة السمراء بكيان له ثقل غريب في مجالها؛ فالتفتَت ورأته و اقفًا بالقرب منها، هي وصديقتها.

- عذرًا، ولكن الرجاء التحدّث بتلك المسائل خارج ساعات العمل.

- تحت أمرِكَ سيدي، سأذهب حالًا لتسليم هذه الأوراق وهي ستذهب معي.

شدّت صديقتها التي سارَت وعيونها مُعلّقة بوجه الرجل الذي ثبُتَت نظراته على طاولة صغيرة، عيونٌ حزينة، وطريقته وهو يتكلم تتأرجَح بين القرف والتمزق.

في الأيام التالية ركّزت مادلين.. "نعم مادلين، لطالما قالت لنفسها أنه ليس اسمًا مناسبًا لفتاه سمراء" على تصرفات هذا الرجل، واكتشفَت بالصدفة أنه مُدير هذا الفرع من فروع الشركة، ويسير دائمًا واضعًا يديه في جيوبه، وحين يعرِضُون عليه مشكلة يبتسم ابتسامة صغيرة لا تُظهر

أسنانه، مُصدرة صوتًا غريبًا، تكّة، حيث تميل شفاهه لجانب وجهه الأيمن، ثم يقدّم حلها كأنها لا شيء.

- ممل! ذلك الرجل ممل.

- لم؟ يبدو لطيفًا؟

- يبدو أخرقًا، هل تعرفين أن لا أحد شاهدَ يديه إلى الآن، إنه يضَعهما في جيوبه حتى وهو جالس.

- لا أدري، يبدو مَرحًا نوعًا ما.

- مرح؟ ما هي فكرتكِ عن المرح؟

لم يبدو على مادلين الاهتمام بما قالته صديقتها، الرجال المتأنقون الصاخبون المُتكبرون، الذين يظهرون بالإعلانات يبدون مُنفّرين بالنسبة لها، خاصةً في إعلانات الأدوات الرياضية، هه، ابتسمَت بينها وبين نفسها حين تذكرت تعليقًا قالته جدتها العجوز:

- الرجال العر ايا لا يجذبون سوى إناث البعوض.

تضحك بقوة كلما تتذكّر تلك الجملة، لكن الآن اضطربَت حين شاهدته آتيًا نحوها.

- آنسة مادلين.

- نعم سيدي؟

- عليكِ حضور الاجتماع، يوشك على البدء.

- آه، حسنًا، سأجلب الاستبيانات عن رضا العملاء و آتي.

- حسنًا.

قبل ذهابه، افترّت شفتاه عن ابتسامة صغيرة لكنها لم تكتمل، إذ نظرَ للأرض بعدها مُطفِئًا إياهًا، بدت مثل طفلة تحاول الخروج من الباب؛ فيمسكها والداها ويدخلانها.

2

دارَت المُناقشات بحدّة بين أعضاء مجلس الإدارة، حتى كادَت تنفجر من الصداع، وعادت لعادتها القديمة وقت الضجر من لف خصلات شعرها وملاحظة الأظافر بأيادِي كل الموجودين حولها طويلة أم قصيرة؟ نظيفة أم لا؟

- أيها السادة، رجاءً، أيها السادة.

قال ونهض.

- الأمر كله مُتعلق بالدعايا، بالإعلان التليفزيوني، يجب أن تنسُوا الأفكار التقليديّة عن الإعلانات، الشباب الذين يتقافزون ويغنّون مقطعًا من أغنية ناجحة وتركيب اسم المُنتج عليها، صِفر من عشرة، الإعلان المليء بالحسناوات عرايا أو لا، صِفر من عشرة، الإعلان الذي فيه سيّدة عجوز تثرثر وتُرشّح المنتج للشباب، الإعلان المليء بالسجع، الإعلان المليء بأناس جرّبوا المُنتج وأعجبهم ويحكون خبراتهم، صفر صفر صفر صفر، كل هذا ابتُذِل حتى النخاع، يجب ان يكون هناك ابتكار، شيء غريب، عجيبٌ مُلفت، هل تفهمون؟ لا أعلم لِمَ تستصعبون الأمر هكذا؟! هناك رجال أصحاب محلات فول يسوّقون لها بشكل لافت ومُبهج مثل ليفر فول، هل تضحكون؟ نعم، إنه عنوان مُضحك، وكل من قرأه أثناء مروره به ضحك أيضًا ودخل يأكل، ورجل صاحب محل كبدة اسماه كبدة وصدقتها.

ذلك الرجل غير أنه ربط بين اسم مطعمِه ومقطع من أغنيه حزينة؛ فقد لفت نظر الناس للرابط بين الطعام والحزن؛ فجميعنا نأكل كثيرًا عندما نحزن، كان يستهدف تلك النقطة، ربما، لكن لفت الانتباه وهذا كل شيء، مع إثارة الضحك بكل من مَرّ به، وإذا قال له أحد أن طعمها سيء، لن يفعل شيئًا سوى أن يشير لاسم المطعم.

هؤلاء المُشترين ليسوا أغبياء، هم أذكياء بقدرِكُم وبقدري، ويعلمون مثلنا إنه لا جديد تحت الشمس، يعلمون أننا نخدعهم، لا يريدون منّا فقط سوى بذل المزيد من الجهد أثناء الخداع؛ كي لا يشعروا أنهم أغبياء جدًا.

بدا خطابه القصير مؤثرًا، أحسَّت مادلين بمدى جِدّيته وذكائه، هي نفسها بمجرد أن تشير القناة لانتهاء عرض المسلسل مؤقّتًا وقدوم إعلان لا تنتظر حتى سماع ما يعلنون عنه، وتكتم الصوت منتظرة انتهائه.

ظلوا يتناقشون عن تكاليف الإعلان الذي "يطمح" سيادة المُدير به، كلمة من هنا، وكلمة من هناك، ونيّات حقودَة خلف الكلمات، يسقط الغلاف أثناء طيران الكلمة من الفم إلى الأذن؛ فتدخل الكلمة دون الغلاف، أو الغلاف دون الكلمة، بدا الوضع هستيريًّا، حاولَت العودة لمُراقبة الأظافر فلم تستطع.

- إنهم يتكلمون بأظافرهم.

قيلت الكلمة داخلها بصوت جدتها؛ فأضحكتها قليلًا، وجالَت بنظرها باحثة عنه فلم تجده.

- كيف يتسلّل شخصٌ بهذه الضخامة؟

حاولَت أن تفعل مثله؛ فأوقفها مدير تنفيذي كبير، وأعطاها مجموعة من الأوراق، آمرًا إياها أن تلحق بالرجل الذي "يطمح" ليُلقي نظرة عليها ويوقّعها لو وافق على ما بها.

خرجَت من قاعة الاجتماعات باحثة عنه، فأخبرها الساعي أنه أخذ المصعد ونزل، لحِقَت به، شاهدَتْه يستقِلّ سيارة أجرة، لمحته للحظة يمدّ يده، يفتح الباب الأمامي ويركب.

أسرعت لسيارة أجرة، وأحسّت بالسخافة وهي تقول للسائق الْحَق بهذه السيارة، وبعد ترددٍ همسَت: لو سمحت.

- نعم، لتخفيف التوتر.

عادت تكلّم جدتها التي ماتت منذ زمنٍ بعيد فلم ترد، وتململَت في مكانها محاولةً الوصول لوضعٍ مُريح، حاولَت تأمل المناظر والشوارع، ثم لمحَت وجه سائق سيارة الأجرة؛ فوجدَت زائدة جلديّة على شكل قرن بارزة من جفنِه السفليّ، أحست بشعورين مُتضاربين: الأول هو الخوف الشديد من تلك الهيئة القريبة الشبه -حسب ظنها- بالعفاريت، و أيضًا بالغضب الشديد منها والرغبة في قطعها، ملأها الشعوران حتى غطّيا على تفكيرها العقلاني؛ فتناولت النقود من حقيبتها ورمتها للسائق، صائحةً فيه كي يتوقف، والرجل لم ينطق بشيء.

سارت عدة خطوات، ثم وقفَت واضعة يديها على خصرها محاولةً تهدئة نفسها والتركيز على إيجاد اللعين الذي لا يقف ساكنًا، لمحَتْه يدخل سوقًا صغيرًا، حيث يتزاحم الباعة ويشتد الصياح؛ فتبعته.

ترامى إليها من وسط الأصوات، التي اكتشفَت أنها أقلّ من المُعتاد؛ لأن هناك عدة محال مُغلقة، صوتٌ له رنّة سخيفة، ليس هذا فقط، بل أقسام الصوت نفسها مُزعجة، حادّ وعالٍ، ونبرته هازئة.

وقف المُدير بالقرب منه، وبسبب مرور العديد من السيارات بذلك الشارع الضيق تمكّنَت من اللحاق به، ووقفَت خلفه، وهو بالقرب من ذلك الرجل المُزعِج الذي يبيع أدوات منزلية وسكاكين ذات نصال قصيرة توضع في أغماد بلاستيكية كأنها خناجر، ينتظر مرور السيارات ليذهب للناحية الأخرى، قد كان يناقش مُشتريًا بصوته العالي المُزعج:

- يا عم، هذا السكين الذي تبيعه ثَلِمٌ لا يقطع، سأشتريه بنصف الثمن.

- وإذا كان السكين ثلِمٌ هكذا، ماذا ستفعل به إذًا؟ تحك به ظهرك؟

- هذه ليست طريقة كلام، أثبِت لي أنّه حادٌّ فينتهي الموقف ونخلص.

وفي سرعة غريبة التقَطَ بائع السكاكين يدَ المُدير من جيبه ومرّر السكين عليها؛ فسال دمه.

- هل رأيت؟ تأكدت؟ أنا لا أكذب أبدًا.

قال البائع بكل روتينيّة وهو يمسح الدماء من على النصل، ويُقدّم للمدير لاصقة طبيّة صغيرة يضعها على جرحه، ولاحظَت مادلين أن يدَه التي جرحتها السكين، والأخرى التي يضمّد بها مملوءتان بجروح صغيرة وضمّادات، نفس النوع الذي وضعه الآن، ثم رفع المُدير يديه أمام وجهه متأملًا.

- ماذا بك، هل تدعو عليّ؟

- لا.

رد المُدير وذهب واضعًا يديه في جيوبه، وظلَّت مادلين و اقفة مكانها، ثم:

● تك.

التفتت محاولة معرفة مصدر الصوت؛ فوجدته يصدر من تلك الأغماد الصغيرة، بينما يضع البائع سكاكينه بها، سارَت وهي تنظر له يُغمِد بعض السكاكين ويسن الأخرى.

- يا لَه من رجلٍ قاس.

فاصطدمت بشخص أثناء سيرها، واعتذرَت بطريقة روتينيّة؛ فالتفت لها الرجل وإذا به سائق سيارة الأجرة، دهشتها رؤيته وحدّقا في بعضهما لثوانٍ، وبدَت عليها بعض أمارات الندم، لكن لم تُقدّم سوى ذلك الاعتذار سريع التحضير، ومضت تفتّش على مُديرها، لكن وقفَت في منتصف الطريق وأرادت أن تعود لتعتذر، لكن لم تستطع، لم تحملها قدماها، وركضَت تجاه المُدير حيث كان.

3

رأته و اقفًا في شارع معزول نسبيًا عن المنطقة، وسط بيوت قديمة من ناحية وأرض زراعيّة من ناحية أخرى، أرض زراعية لا ينمو بها شيء، تكاد تكون صحراء، سارت وراءه من جديد، نظرَت لساعتها فإذا بها الثانية ظهرًا.

كان قد سبقها قليلًا، لكن أسرعَت حتى كادت تبلغه، لكن الشمس حمَت فجأة، و انتابها إحساس شديد بالإرهاق والتعب، لكن لا بُدّ أن يصله الورق.

في لحظة ما أحسَّت أن درجة الحرارة ارتفعَت لدرجة لا يمكن لها تحملها، سارت، ركضت بأسرع ما تستطيع، تسبقُه للحظات، ثم يسبقها هو، يقتربا من بعضهما كأنه يراها، ويحاول الوصول لها أيضًا ولا يستطيع، بمجرّد أن يقتربا بشدّة من بعضهما يتباعدا، الحرارة شديدة كأنها أذابَت الهواء، جعلتها تشعر أنها في خِضمّ بحر من اللهب الشفاف، حرارة تُصلِي الجسد وهواء يُنشّف الرئتين، وأخيرًا انتهى الطريق.

ورأت مقصفًا تحت شجرة ظليلة، رمَت نفسها على أقرب كرسي، ولحقها هو.

- مرحبًا.

قال مُنهكًا وجلس على كرسيٍّ جوارها:

- أريد مُثلّجات الليمون لو سمحت، هل تريدين شيئًا؟

- مياه غازيّة.

- وزجاجة مياه غازية.

وجلسا يتناولان ما طلباه.

- يبدو أنكِ تبِعتيني لسببٍ يخصّ العمل، آسف لو أتعبتك، ضايقَنِي هؤلاء الناس فخرجت.

- نعم نعم، تفضل.

وقدّمَت له الأوراق؛ فمدّ يديه وأخذ يقلّب فيها فاحصًا.

- لن أقدر على توقيعها هكذا، تحتاج للكثير من التعديلات.

- افعل ما تشاء.

وبعقلها: فلتحترقوا جميعًا.

غمزَت لها جدتها لكن لم تبالِ أيضًا، ورنَت ببصرها نحو يدَيه المُجرّحتين؛ فلمحها و ابتسم.

- ما الذي يدعو للابتسام ؟ إنه يؤذيك هكذا.

- الاتفاق.

- ماذا؟! أي نوع من الاتفاقات؟

- اهدئي، أنا أقيم بالقرب من هنا، عند تلك العمارة التي يصيح ذاك الرجل أسفلها، بسبب كراهيتي لضوضائِه اتفّقتُ معه على هذا الأمر كي يصمت.

ملأت أشد علامات الاستغراب وجه مادلين، لكن صمتَت وعادت لزجاجة المياه الغازية، وهو لمُثلّجات الليمون.

- قطعت كل هذا الطريق لأجل المُثلّجات، أليس كذلك؟

- تستحق.

وهَمّ بقول المزيد من الكلام، لكن انتاب وجهه تقلُّص مفاجئ، وأحس بألم داخل روحه، لم تفهم مادلين ما ألَمّ به، ودّت لو تسمع الآن صوت جدتها داخلها الآن يقول شيئًا مُميزًا، لكن الصمت ملأها هي الأخرى،

وأخذَت تنقل بصرها هنا وهناك؛ فشاهدته يرنو للطريق الذي عبرَاه منذ لحظة، بدا وكأن الشمس تلتهم ظلال الشجرة.

- ذلك الطريق اللعين، إنه يمد حرارته إلى هنا.
- ليس لعينًا، هو فقط لا يفهم.
- لا يفهم ماذا؟
- أن هذه الحياة للغرباء، الحياة التالية للأصدقاء.

23

- يا أبي، أريد شراء ساعة.

- حسنًا، اذهب اشتَرِ ساعة.

قال والدي بطريقته الهادئة الساخرة بدون عنف أو تجريح، في الظاهر على الأقل، أخذَت نفسًا بطيئًا وأطلقته نحو السقف مُبتسمًا.

- حسنًا يا أبي، أريدُكَ أن تشتري لي ساعة.

- طيب، انتظر الأسبوع القادم، ريثما يعود حزقيال من السفر.

- حاضر.

جدي كان يشتري ساعاته من محل حزقيال، من حزقيال الأب، واعتاد والدي شراء الساعات من ابنه الذي يقارب والدي في السن، لكن بشكلٍ ما كنتُ لا أحبه، سمَته، هيئته، طريقته في الكلام، يُذكّرني بهؤلاء الساعاتية في مسلسل ر أفت الهجان؛ فأقشعر، لكن ما باليد حيلة.

نزلتُ بعد ذلك بعدة أيام لأتناول أنا والرفاق الكشري عند الحمّصاني، وبعدما أكَلنا سرنا ناحية شيكوريل، ومررنا بمحل حزقيال فوجدته مُغلقًا، تنهّدت، أُحبّ شكل وقوام الساعات، وكونها الحِلية الوحيدة التي تليق بالرجال، حتى رجل مثلي في الصف الثاني الإعدادي لا يمتلك ثمنها، لكن الوقت نفسه لا يعني لي الشيء الكثير، تنقَّلْنا من مكان لمكان حيثما تحمِلنا أقدامنا، ولمَحْتُ محل ساعات يُدعى "الرقّاص"،

وقفوا يستهزئون بعنوان المحل لفترة، حتى نبّهَنا فتى منا قارئ أنّ بندول الساعة يُدعى أحيانًا برقّاص الساعة.

هُم لم يبالوا بالطبع، وأخذوا يتشاورون على فكرة الذهاب وسؤال البائع إن كان الرقاص "متحزم" أم لا، أنا لا أفهم فكرة أن تتحزّم الرقاصة؛ فلِمَ يتحزّم الرقّاص؟

عدتُ لوالدي وأخبرته عن ذلك المحل وكيف ضحكنا عليه.

- هل عاد وفتح مجدّدًا؟

قال والدي وهو يضع ساقه اليمنى فوق اليسرى، وعلى اليُمنى يضع صنفرة حوائط يمُرّر عليها سن قلم حبرٍ سائل، ليشطفه على حد قوله؛ فيصير أنعم في الكتابة.

- نعم.

لمحتُ ابتسامة عذبة على شفتيه، أثناء ميلان النظارة قليلًا للأمام مُبرزةً شعره الأبيض الكثيف الحلو، الذي سآخذه يومًا.

- كان هناك فيما مضى، بنفس الاسم اللافت، كما أن ساعاته تختلف عن البقية.

- لمَ؟ ما بها؟

- ساعاته كلها ترقص.

- ماذا؟

- أراد عمُّك شراء واحدة لكن بابا رفض، لم يوافق على هذا النوع من الدلع، "ده لولو عيّط عياط".

وأخذ يضحك هازئًا بعمِّي الذي تجاوز الأربعين.

- لكن كيف ترقص؟!

- دعنا نذهب ونرى.

مضيتُ أنا ووالدي لذلك المحل، وسرعان ما قام والدي بطريقته الآسرة بمعرفة اسم البائع، واسم والده، وذكرَ شخصًا يعرفه قد يعرفهما، وأخذ يستعيد الذكريات مع البائع كأنه صديق قديم ولم يقابله سوى منذ خمس دقائق، لكني قاطعتُهما سائلًا صاحب المحل:

- لكن كيف ترقص؟

- تخرج من الساعة غزيّة تقدم نمرتها.

- لكن كيف؟ متى؟

- على واحدة ونص.

و اندفع الرجل في الضحك مع والدي، ودعاني لاختيار ساعة؛ فاخترتُ واحدة زرقاء، بدَت عادية جدًّا من الخارج، وعندما ارتديتُها توقّعت حدوث شيء خارق، لكن لم يحدث شيء.

بعد ذلك شاهدتُ عقرب الثواني يتوقف، ففكرتُ في الشكوى لأبي، لكنه بعد ذلك عاد للخلف، مُصدرًا صوت التكّة نفسها، ثم يتقدم للأمام ويعود للخلف، هناك أحيانًا تغيّرٌ في الإيقاع، بينما تمضي عقارب الدقائق والساعات كما هي يستمتع عقرب الثواني بوقته.

24

- لكن لا أفهم، ما علاقة نعيمة عاكف بفيلم نادي القتال؟

بدا ذاهلًا أثناء نقاشه معي، تحدثتُ كثيرًا لكنه لم يفهم، كذلك حين قلتُ له عن أكثر لحظه أدمَتني أثناء مشاهدة التلفاز المصري، بمسرحية "شاهد ما شافش حاجة"، أردتُ أن أشرحِ و أقول، لكن ما الجدوى؟

عدتُ من ذلك الطريق أسمع عبد الحليم عبر سماعات الأذن يقول:

شوف بقينا فين يا قلبي
وهي راحت فين
شوف خدِتْنا لفين يا قلبي
وشوف سابتنا فين

أعرف ذلك الطريق جيّدًا، كذلك الرجل الذي قابلته صدفة، وتناقشنا لتمضية الوقت، كم كانت جميلة ومُبهرة، نعيمة العذبة الممتلئة قوةً وحيوية ونشاط كأني بذلك الوحش الفاتك، السرطان يسمونه، أسمعه يقول:

أردتُ فتح صمام الضّخّ في ناقلات البترول
لتلويثِ كل الشواطئ الفرنسيّة التي لن أزورها أبدًا
أردتُ أن أستنشق الدخان
أردتُ تحطيم شيء جميل

بدا نورتون في الفيلم تجسيدًا له، وددتُ لو أحطّم الشمس الآن، ذلك الطريق الطويل الذي تغزوه، ناشره سُلطانها عليه، مُريدة منا جميعًا أن نركع لها، حتى الكلاب اختبأت تحت السيارات، لمحتُ سيارة كبيرة، إطاراتها ترفعها مسافة مناسبة عن الأرض؛ فمضيتُ تحتها واستلقَيْتُ لو قلت لوالدتي أني فعلت ما فعلت؛ فلن تفهمني.

- مش ولدت كالابالا، جابِت تيموروهندي ومنجاوي.

يستشيط سيادة المُقدم غضبًا، يتقلّص وجه سرحان ويرتبك، الوجه وجهي، حين أناقش ما أحب، حين أناقش أي شيء معهم، يأتي كلبٌ ويشتمّ أسفل السيارة، يراني فيُذهل ويعود للوراء، أفسحُ له مكانًا وأدعوه، يقترب بخوف، ننام جنبًا إلى جنب أسفل السيارة، وقطرات مطر مالحة تمس أذني.

25

- ده شوية إسهال، إيه يعني شوية إسهال!

سمعتُ ذلك الكهل يتحدّث مع صديق له على القهوة أثناء مروري أمامها، الصوت، اللكنة، طريقة مط الكلام أثناء السخرية، شعرتُ أنه أبِي؛ فالتفتُّ مصعوقًا نحو مصدر الصوت، فحدجني الرجل بنظرة غريبة مرتابة، فذهبت من فوري.

في الأيام التالية جلستُ على تلك القهوة لأسمع هذا الرجل وهو يتكلم ويسخر بنفس طريقة أبي، لا أدري ربما الجيل كله هكذا، لكن بعد فترة أحسَستُ أن كلامه خالٍ من المعنى ويفتقر للمْسَة الحنان التي تُميّز صوت أبي.

توقفت عن الذهاب إلى هناك، وظلَلتُ أتجوّل في الشوارع، ربما أجد أحد أقربائي، أو لا أعلم، أسمع أحدًا بصوتي.

26

1

الصمت... الضجيج!

بدا كل شيء يتأرجح بالنسبة لها بين هاتين الكلمتين، لا تطيق الصمت ولا تطيق الضجيج، عليها أن تكتب شيئًا للصحيفة، وأرادت أن تكتب عن أثر الصوت، قرأت شيئًا ما على الإنترنت، عن أغنية مُعينة حديثة، ذات ترددات منخفضه تقوم بشكلٍ ما بطرد البعوض، بل وتتسبَّب بتناقص معدلات تكاثره، لا تعرف هل هذا الكلام صحيح أم لا؟ لكنه مُسلّي.

انتاب روحها العطش، العالم كله صحراء قاحلة في هذه الساعة، ربما قتل ماكبث دنكان في هذه الساعة؛ لأنه كان ملولًا فقط.

تنهّدت بعمق.

ثم نهضت وارتدت ثيابها، وأخذت تتجوّل بالشوارع، كل شيء هادئ، نسمات الهواء تنساب برقّة ولُطف، أطفال كانوا يلعبون بإحدى النواحي بدراجاتهم و أثاروا تُر ابًا، حملته الريح إليها، الآن يصفَعُ وجهها.

مدّت يدها محاولةً الإمساك بذرة تراب واحدة، ذرة واحدة، أحَسَّت أنها ستتمكن من الانتصار على شيء ما خفي وضحل لو التقطت ذرة بيدها.

أحسَّت بالتعب من جديد، لكن لم تُرِد العودة لمنزلها، حيث المنظر المعتاد، السرير والشراشف النظيفة جدًّا، كل الملاءات والشراشف في بيتها عبقة برائحة الليمون حين غسلتهم مُدبّرة المنزل لآخر مرة.

سارت من مكان لآخر، الوقت الآن هو الذي تُغلَق فيه الحانات أبوابها، تذكرت قصصًا عن رجال أدمنوا الخمر حتى هلَكُوا، هناك قصة لتشيخوف عن الرجل الذي أراد مقايضة معطفِه بكأس خمر ليُغرِق حزنه.

أخرجَت قنّينة معدنية صغيرة من جيب معطفها، تحتوي على القليل من البراندي، فتحتها وأخذَت تتلفّت يمينًا ويسارًا، ثم رفعت رأسها لأعلى ولمحت القمر، ثابتًا في السماء، مثل وجه امرأة عجوز لطيفة مُلتحفة بالأغطية، لا يبدو منها سواه.

- Here's looking at you، kid.

وشربت نخبَ القمر بطريقة بوغارتيه و ابتسمَت.

ربما أول مرة لهذا اليوم، وعلى البُعد شاهَدَت حانوتًا يضيء أنواره، الكثير من الأضواء البراقة اللامعة.

- شكرًا لكِ.

وأخذَت يد رجلٍ قنينة البراندي منها وشربها كلها، ثم أخرج نفسًا حارًّا من صدره.

- ليحفظكِ الله يا سيدتي، كما حفظ هذا الخمر، وداعًا.

و انطلق مسرعًا نحو الحانوت، رفعت القنّينة لأعلى تتأملها؛ فوجدتها قد فرغت تقريبًا، فصاحت به:

- هاي أنت، انتظر.

لكن الرجل لم يُعرْها انتباهًا، وسار حتى دخل ذلك الحانوت، كان المكان مليئًا بصناديق لعب الأطفال، عرائس باربي ومُجسّمات بات مان وغيرها، كل شيء في علبة لطيفة ظريفة من البلاستيك، بأحجام متنوّعة ومتعدّدة، رن جرس لطيف مُنبئًا عن دخول شخصٍ آخر، التفتَت فشاهدت امرأة سمراء ومعها طفلة صغيرة، فابتسمت؛ لأن إحساسها بالوحدة نقص قليلًا، لكن تساءلت لمَ لَمْ يرن الجرس حين دخلت هي؟

- صباح الخير، كيف حالك؟

قالت المرأة السمراء مُبتسمة إليها؛ فافتَرّ ثغر الصحفية عن ابتسامة أخرى تحاول أن تُخفِي بها ارتباكها.

- أسنانها بيضاء وجميله يا أمي.

- كذلك ستكون أسنانكِ إن اعتدتِ على غسلها بالمعجون، بعد إذنك يا سيدتي.

قالت المرأة السمراء من جديد، والصحفية لا تدري ما تقول أو تفعل، بل هي لا تدري هل هي طرفٌ بهذا الحوار أم لا؟

ومضت الأم وطفلتها تتفقّدان الألعاب، الأم تشير لشيء والطفلة تشير لآخر، حتى اتفقتا في النهاية على لعبة بلاستيكية لأميرة جميلة جدًا.

- مستر بر اندي، مستر بر اندي.

اضطربَت الصحفية وأحسَّت أنها وسط مزحة سخيفة.

- أنا هنا سيدتي، تحت تصرُّفِك.

ظهر نفس الرجل من جديد خلف مكتب عليه صندوق عملات أسود، وأخذ اللعبة من السيدة بعد أن تبادل النكات معها هي والطفلة، أخبرها بالثمن ونقدَتْه المال.

- لحظة، سأضعها بالكيس.

وبسبب ارتياب الصحفية دقّقَت النظر في يديه وهو يضع اللعبة بالكيس.

"ثمة شيء عفن".

قالت لنفسها كذلك الجندي فوق ألسينور.

- نعم هذا ما ظننته.

همسَت الصحفية حين رأت ذلك "البر اندي" يخرج الدمية من العلبة البلاستيكيّة ويرميها في سلة على الأرض.

- تفضلي يا سيدتي.

- شكرًا، هيا يا صغيرتي.

وهمّت المرأة والطفلة بالرحيل، بينما هي مُثبّته نظرها على ذلك الرجل، وعندما فتحتا الباب أفاقت أخيرًا.

- انتظري يا سيدتي، ذلك الرجل قد خدعك، العلبة فارغة، إنها فارغة.

وقفت المرأة مُندهشة، وأخرجت العلبة التي كانت بالفعل فارغة، وحدّقت بها للحظة.

- هل ثمة أمر خاطئ سيد بر اندي؟

- لا يا سيدتي، امضي في طريقك، في طريق الأرض كلها.

- حسنًا سيدي، فلتحظ بيومٍ جيّد.

- و أنتِ أيضًا سيدتي، هذا كل ما نملكه حقًا.

وأغلقَت المرأة الباب ورن ذلك الجرس بلطف.

2

سيدي، سيدتي، سيدي، سيدتي، أحسَّت الصحفية بغباء لم تشعر به من قبل، منذ أن ارتدت ثوبًا ورديًا لتقوم بدورلايدي ماكبث على مسرح المدرسة الثانوية.

- ما القصّة؟ من أنت؟ وما هذا المحل، ما اسمك الغريب هذا؟

- حسنًا، هكذا أسماني والداي، لا ذنب لي في هذا.

وحرك يديه كأنه يغسلهما بالماء ويرمي المنديل بعيدًا.

- هذا المحل الغريب، ما الذي تبيعه هنا؟

- الصناديق.

- ماذا؟!

- لا أفهم ما الشيء الغريب؟ هل تعانين من ضعفٍ بالسمع صـ نا ديق.

- أنا اسمع جيدًا.

- إذًا ما المشكلة؟

أحست الصحفية بالضيق والضجر، وكادت تفقد أعصابها وتهم بالخروج؛ لتعود لسريرها وتنام، لكن تحرّكَت أتربة الذاكرة في ذهنها، ودفعَت رائحة الليمون لأنفها فاقشعرّت، وقررت أن تتجول في المكان مُبعدةً ناظريها عن وجه ذلك الرجل السخيف، رأت الكثير من الألعاب والمُجسّمات التي تمنَّت اقتنائها وهي طفلة.

- لكن فعلًا لا أفهم، هل من يأتون إلى هنا لا يريدون سوى الصناديق التي تحوي اللعب فقط؟

- نعم.

- لكن لِمَ يفعلون هذا؟! ما المُمتع في صندوقٍ بسيط؟

- من يدري؟ أظن بعض الناس لا يريدون اشياء جديدة، يريدون فقط المحافظة على التي لديهم.

- نعم، ربما.

ظلت تتجول في المكان، فكّرت أن تشتري علبة تحتفظ فيها بمُجلّد الأعمال الكاملة لشكسبير الذي قدّمَه لها والدها، و أثناء تنقلها لمحَت بيانو كبير.

فذهبت ناحيته وجلست على الكرسي الصغير مقابله وتنهّدت، أحسّت أنها فقدَت أخيرًا كل قوتها، ولا تريد سوى النوم.

- يبدو عليكِ التعب، أتُحبّين أن أعدّ لكِ شايًا بالليمون؟

اقشعر جسدها كله مع ذكر آخر كلمة.

- اصمت، اصمت فقط.

- ماذا؟! أنا مدين لكِ بشراب.

رفعت رأسها للسقف في عذاب.

- يا إلهي! هذا الرجل هنا، وتلك الشراشف اللعينة هناك.

- هل قلتِ شيئًا؟

- هلا عزَفْتَ لي على هذا البيانو، اعزِف أي شيء، أريد سماع موسيقى جديدة، أو أي ضجيج، شيء لا هو صوتك ولا صوتي، ولا هذا الصمت.

تلفّت بر اندي باحثًا، ثم أخذ يحكّ رأسه في اندهاش.

- معذرةً أين هذا البيانو؟ هل تحملين واحدًا معكِ؟

- ها هو أيها الأحمق، ها هو!

لم يرد عليها بر اندي، إنما نظر إليها نظرة غاضبة شديدة فلم تُزِد.

- أنا آسفة، يفقدني السهر اتز اني.

قالت بتبرُّم:

- لكن ها هو البيانو.

ابتسم براندي بلطفٍ وقد زال غضبه.

- آه نسيت كم يخدع هذا الزبائن! هذا ليس بيانو إنه فقط صندوقٌ عاديّ.

- ماذا؟!

- جرّبي أن تفتحيه.

رفعت الصحفية الغطاء عن المفاتيح؛ فلم تجد سوى عشرة منفصلين بعضهم عن بعض، خمس حُمْر على اليمين وزُرق على اليسار.

- سأذهب وآتي إليكِ بمياه غازية، ما رأيك؟

- حسنًا.

بعد ذهابه ندمت الصحفية لأنها لم تسأله عن طريقة تشغيله، فكرت أن تضع اليد اليُمنى على الحمراء، واليسرى على الزرقاء، لكن بسبب الجو المُرِيب للمكان، ونظرة براندي، لم يبدُ شريرًا، لكن نظرته مخيفة.

أخرجَت كشافًا صغيرًا تحتفظ به في حقيبتها، ووجهّت الضوء لتلك المفاتيح، لم تلحظ أي مسحوق عليها أو ما شابه، لكن قرّرَت ألا تأكل شيئًا سوى بعد غسل يديها بدقّة لاحقًا.

بعد ذلك جلسَت منتصبة مشدودة القامة على الأريكة الصغيرة، واعتلى وجهها تعبير جاد، كان مطبوعًا في لا وعيها، دون أن تتذكر من أين استقَته، ستخجل لو عرفَت أنها شاهدته على وجهِ توم القط، في الحلقة حين ظهر كعازف بيانو، جهزَت واستعدّت، ثم ضغطت على المفاتيح

العشرة في نفس الوقت، لم يصدر أي صوت؛ فرفعت الصحفيّة يديها وحاولت أن تفحص المفاتيح لتفهم ما جرى، لكن ما حدث أذهلَها.

فقد ابتلع جسد البيانو نفسه المفاتيح العشرة، وبدأ يتحول ويتغير تركيبه؛ فنهضت الصحفيّة خائفة، ورفعَت الغطاء متوقّعة أن تشاهد الأوتار، لكن لم تشاهد سوى مساحة فارغة، وعند الزاوية اليسرى شاهَدَت مساحة صغيرة مربّعة من الخشب تنزل لأسفل ويخرج بدلًا منها مجسم طيني صغير لرجلٍ يرتدي بزّة ويحمل في يده نايًا، يقرّبُه من فمه ويخرج لحنًا حزينًا للغاية.

عندما اصطدمَت الموسيقى بها أسقطَت شيئًا من روحها على الأرض، شيء ضئيل لم يتمكن من جوهرها، كان يحوم حولها خفيفًا تافهًا كالذباب، أسقطته الموسيقى بضربة واحدة، ثم التصَقَت بها؛ فجلسَت دون مقاومة، وأغمضَت عينيها.

لكن نهضَت فجأة متوترة، تصرفٌ بدا كردّ فعل من روحها وجسدها القلقين اللذين لم يعتادا السكينة، أرادَت الذهاب ومناداة بر اندي، لكن أحسَّت بعدة تحركات في المربع الخالي أمامها، حيث نزلَت عدة مربعات مُحددة لأسفل، وخرجَت بدلًا منها مُجسّمات طينيّة صغيرة لأبنية وسيارات، شيء ما يشبه شقوقًا صغيرة، واحدة منها مكشوفة لسقف، لكن لم يكن هناك سوى مجسم واحد لإنسان، عازف الناي، الأقرب للُعبة بلاستيكيّة يقرب الناي من فمه ثم يبعده، لكن الصوت ينبعث ولا يكفّ، لحن حزين مثل قطار يسير في ليلٍ أزَلِيّ لا ينتهي.

الطريقة هي تكرار النغمات، شيء ما يُعاد مرارًا وتكرارًا بطريقة مختلفة بين الحين والآخر، نفس سحر سوناتا ضوء القمر، حين تظنّ وهي جالسة في السكون أنّ الموسيقى ما زالت تُعزف، لكنها فقط ذابَت بالهواء منذ فترة والعزف متوقّف، ويتكثّف الجمال على أذنيها.

عند الجانب الأيسر القريب منها شاهدَت مُجسّمًا لرجل يتحرك جيئة وذهابًا خارج الغرفة، رجل طينيّ أيضًا، ثم يُفتح الباب؛ فيدخل ويشاهد امرأة نائمة على السرير، ورضيع على سرير صغير.

شاهدت يديه الصغيرتين ترتفعان وتهبطان، وشاهدَت الرجل يرفع الطفل لأعلى ويقذفه بالهواء مرة أو اثنتين من فرط الفرح.

تهبطُ المُجسّمات لأسفل وتبتلعها الأرضيّة، يظهر الرجل جاذبًا طفلًا صغيرًا من يده، تاركًا إياه أمام مبنى، تلاحظ الصحفيّة بروزًا في ظهر الطفل؛ فتخمّن أنها حقيبة وذلك المبنى مدرسة، يدخل الطفل وتظهر مُجسّمات لأطفال يلعبون، يقترب منهم؛ فيبتعدون.

تزول كل المُجسّمات بهدوء ويظهر أمام مبنى آخر وقد ازداد طوله قليلًا، هناك أولاد آخرون يلعبون في مثل طولِه، يقترب منهم؛ فيبتعدون.

تزول الأشكال كلها من جديد، ويظهر مبنى أضخم قليلًا والولد أطول، فيدخل هناك من هُم في مثل طوله، يتحدّثون ويتقاذفون كرة، لا يقترب منهم.

تبتلع الأرضيّة كل شيء، يظهر هو من جديد، سائرًا وسط مكانٍ شاسعٍ به عدة أبنية، هناك أبنية تشبه كرة سلة وقدم ومُجسمات لأنابيب اختبار، وأخرى لجماجم وعظام وأخرى لمثلثات ومناقل.

- الجامعة!

قالت الصحفية ولاحظته وهو يتحرك بسكون وأسى وسط زحام الآخرين، هناك الكثير من المُجسمات، وظهرَت لأول مرة ضفائر وذيول حصان وفساتين، أحسَّت أنه لم يكن منبوذًا، إنما غير مرئي، ورغم أن شيئًا لم يتغير، لكن بدا أنّ الليل حَلّ، وشاهدت الشبان والشابات يتلاشون أزواجًا وفِرقًا، بينما هو يسير بمفرده، خطوة تلو الأخرى، يُجَرجِر

أقدامه، ولاحظَت أن طوله يقصر، وأنه لا يُبتلع، بل يتفتّت بالتدريج، حتى تدحْرَجَت رأسه الصغيرة على الأرض، رأسه الآن بحجم جسمه الصغير حين ولد.

أحست بالحزن والاكتئاب وهي تشاهد كل ذلك دون أن تفهم شيئًا، بعد لحظات ابتلعَت أرضية البيانو كل شيء، وانغلق الغطاء عليها، لم تقْوَ على كبْتِ دموعها فبكت؛ لأجل كل ذلك، ثم تركت مكانها لتبحث عن براندي وتخبره بما جرى؛ فوجدَته آتيًا نحوها.

- البيانو، حدث شيء غريب، رجل ذاب و...

- اهدأي، اهدأى، تناولي القليل من عصير البرتقال.

تناولت زجاجة البرتقال الباردة وشربَت منها دون أية احتياطات، حتى أحَسَّت أن حلقها يكاد يحترق من فرط البرودة.

- انظر، انظر.

- أين؟

- البيانو، تلك المُجسّمات.

- آه، أنتِ رأيتِها إذن!

- ماذا تقصد؟!

- اتبعيني.

وسارت خلف براندي، نحو المكان حيث كان البيانو.

- أين هو؟ أين ذهب؟

- إنه هنا، على الأرض.

- ذلك ليس سوى تابوت.

- نعم، إنه تابوت مسحور أو شيء كهذا.

- ماذا تقصد؟

- حدّثَني رفيق مِهنة عن ذلك النوع من التوابيت، إنها أشبه بسيرة ذاتية أو شريط تسجيلي، يقال أن الأخشاب التي تصنع منها من أشجار تنمو على بِرَك الدموع، أشجار سحريّة ليست من هذا العالم.

- ماذا؟! هذا لا يمكن.

- صدقيني إنها توابيت تحِنّ على الميت، تهبُه حين يفتح أحد تابوته عرض بانورامي لحياته، كما شاهدتِ.

- لكن كيف؟! أين مصدر الطاقة؟

- جسده، ألم تلاحظي أن كل المُجسّمات طينيّة؟

اتسعت عيناها بذهول، وهمسَت بين شفتيها بصوتٍ لا يُسمَع:

- والموسيقى؟

هَمَّ براندي بالرد، لكن كان الأمر جليًّا، كل تلك الموسيقى موسيقى ناي فقط.

- لكن أخبرني، كيف مات؟

- قيل أنه مات منتحرًا، وقيل أنه سقط بالماء صُدفةً وغرق، لكن هناك شيء ما يحيرني.

- ماذا؟

- حاولت أنا ومَن قبلي أبي -هو رفيق المهنة بالمناسبة- الذي مات ذلك الشخص في حياته فتح التابوت، لكن لم نستطع.

- ماذا تعني؟

- أظن ان تلك المفاتيح الحمراء والزرقاء هي أصابعه هو أو رمز لها، لا أدري، ربما أراد أن تمسّها امرأة حتى لو بعد وفاته؛ ليكشف لها عن آلامه وعذابات روحه، انتظري.

ومضى براندي وفتح التابوت؛ فوجد داخله خاتمًا صغيرًا ولا شيء آخر.

- أظن أنه قد ترك لكِ هذا.

لكنه لم يجد الصحفيّة، ورفع الخاتم أمام عينيه؛ فشاهد فصًّا لامعًا شفافًا على شكل قلب نصفه أحمر ونصفه أزرق، ولم تكَد تمُرّ ثانية حتى سمعه يتشقق.

- على رِسلِكَ يا صديقي.

وأخرج من جيبه قنّينة خمر صغيرة، رماه بها.

عن الكاتب

مايكل ابراهيم ذكري ثابت

خريج كلية الصيدله - جامعة اسيوط ,

صدرله :

كتاب pdf من قبل باسم شمس سوداء .